الصحافي ابن الشعب نعوم اللبكي

الرئيس الجديد للمجلس النيابي

اللبناني المخلص حبيب باشا السعد

رئيس المجلس النيابي السابق

انعمت الحكومة الافرنسية على المسيو دي ريفي سكرتير المفوضية العامة بلقب وزير

وطوى الزمان كتابه ....

أيعيش في لبنان حرٌ
ومعيشة الاحرار قهرُ
نفدا اصطباري في الحياة
ولم يعد في الصدر صبرُ
مالي مقر ثابت
في موطني، مالي مقرُ
كل يطاردني الفرار
وليس لي منه مفرُ
لبنانُ والماءُ الزلالُ
برقرق لا يستقرُ
والمسرح اخضر باسم
للفجر والاكام خضرُ
والبحر مرآة له
وله من الازهار ثغرُ
ومن الجبال الشامخات
له بناءٌ مشمخرُ
لبنان كان بباسه
اسداً من الاجيال ظفرُ
فاذا دهته صواعقُ
الايام رعباً تقشعرُ
فعليه من الانبيا
والاقدمون عليه مروا

الجنرال ويغان في دمشق

كنا نشرنا في عدد سابق رسما للجنرال ويغان في دمشق وقلنا انه أخذ في حديقة البلدية والحقيقة ان الرسم اخذ في احتفال المدرسة العسكرية السورية

وهذا الرسم الثاني يمثل الجنرال المفوض السامي X في نفس الحفلة مع رجال حكومة الاتحاد السوري وكبار موظفي الانتداب

بشغله الشاغل ، بل هو ممتع فى وصف الأشياء التى تناولها وأحس بها .

وصف الأشياء المعنوية — الخلجات — أعماق الأحاسيس — فى المعانى النفسية ، وفى المرئيات ودنيا المحسوسات ، فتراه وتسمعه فى قصيدة يصف النغم الموسيقى فكأنك تسمع نغمة ، وينقلك على بعد الزمان والمكان إلى تلك الجلسة الأندلسية ويصف العازف ، وكأن العازف أمامك ، وكأن اللحن يصب فى أذنك ويتبلور فى حسك .

وهو من ناحية أخرى عند ما يتصدى لوصف معركة فكأنك تسمع جلبة الخيل وتشهد لمعان السيوف ووثوب الفرسان واصطراع الجند أو ترى لهب القذائف النفطية من الأساطيل المتعاركة على شواطئ صقلية .

ويصف القصر والبركة والتماثيل وتدفق المياه ، والشمعة وذوبانها ، وإرسال الضوء من فتيلها والساقية التى تدور بالكأس فيبدع فى كل هذه الصور والمحسات والأجواء التى شاهدها فى محيطه بصقلية أو بالأندلس أو بتونس .

وتدل هذه الخصوبة فى فن الوصف على الإحساس الفوار والمشاعر الملتهبة .

وقد تكون الأشياء التى تناولها ابن حمديس بالوصف وضمنها قصائده سبق أو لحق أن تناولها الشعراء بالوصف ، ولكن

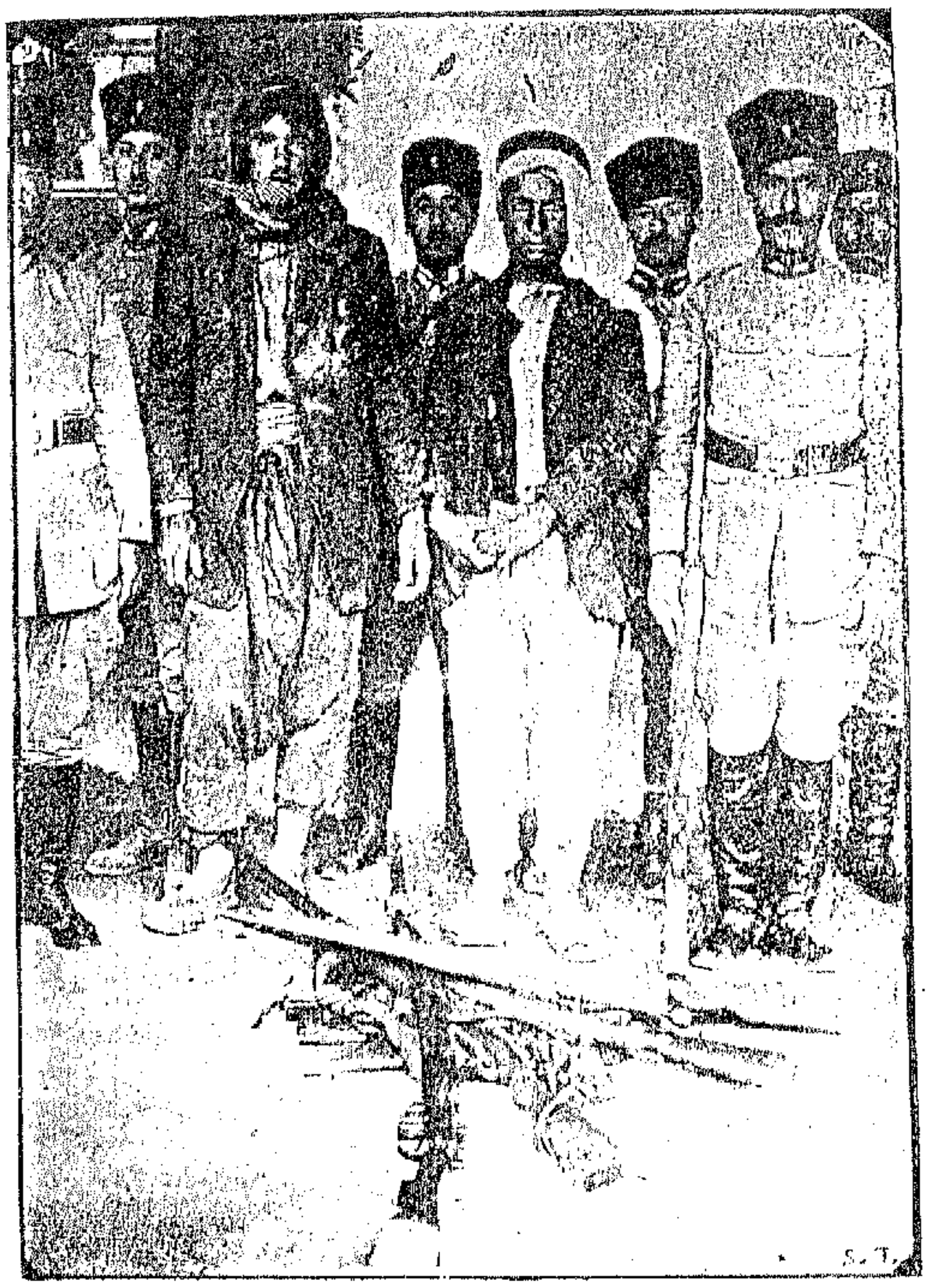

رفيقا العصابة

يمثل هذا الرسم رفيقي عصابة محمود رفاعه في فلسطين، وهما قاسم سليمان محمد (١) وصالح قاسم ابو حمره (٢) وقد ثبت انه ليس على هذين جرائم في لبنان فسلمتهما الحكومة اللبنانية الى حكومة فلسطين ليحا كما هناك

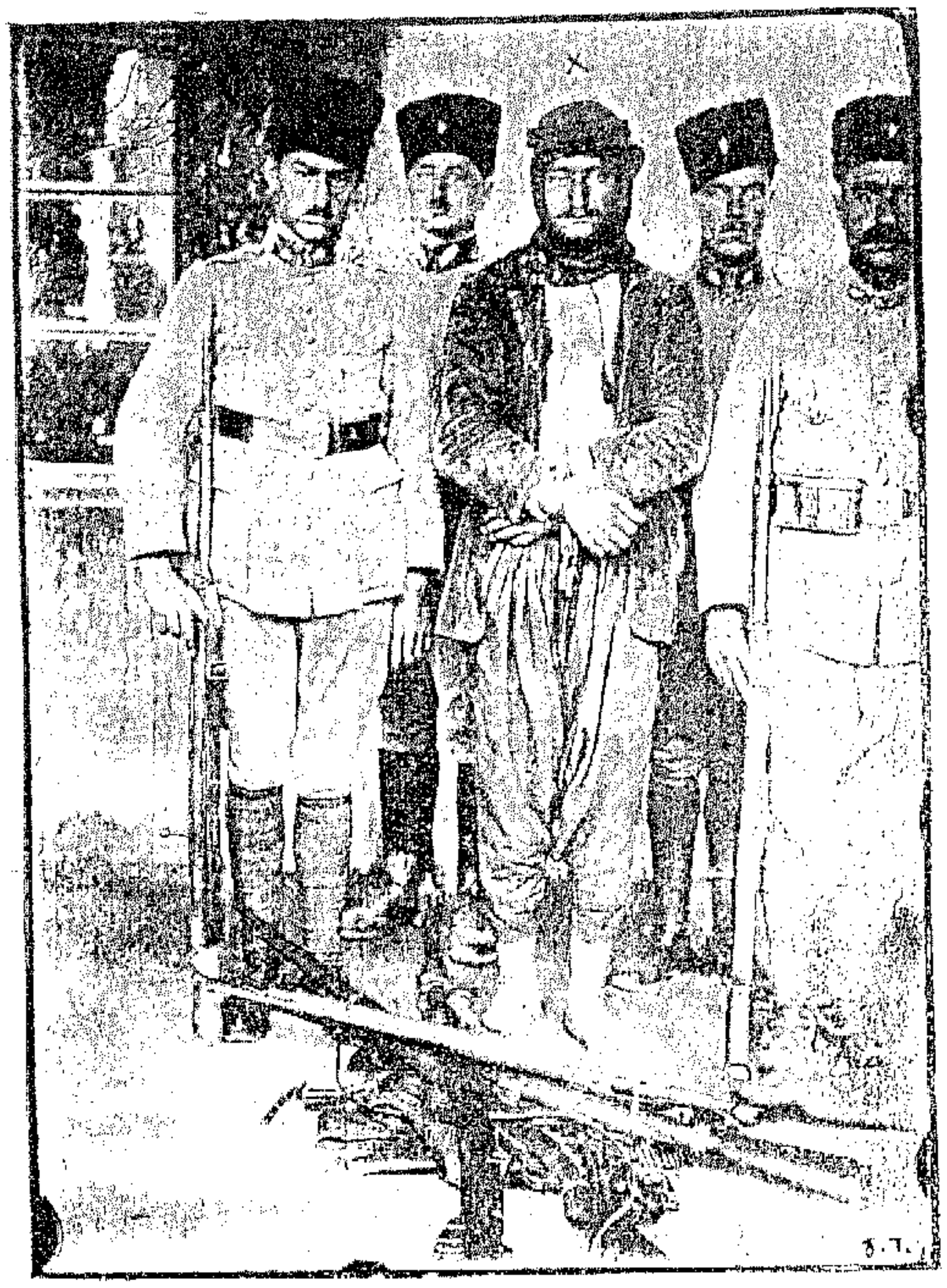

محمد سلمان السناوي

رفيق محمود رفاعه الذي يحاكم معه اليوم امام المجلس العرفي وهذا رسمه يوم اخذناه في صيدا حول القبض على العصابة

فسماؤه الوحي الصحيح
وتربه مجد وفخر
ان فاته بأس قديم
لم يفته سناً وقدر
فعلى مفاخره استمر
وليس يبرح يستمر
واليوم قد عبثت به
نوب وجار عليه دهر
وطوى الزمان كتابه
هل بعد ذاك الطي نشر
قالوا وقد بصروا بخدي
من دموعي يستدر
إرحل لمصر، فقلت في
نفسي لهم : لله مصر
سأبين عن وطني ففي
وطني ثعالب وهي كثر

نكبة الاسطول الاميركي

حملت انباء البرق من اسبوعين خبراً مؤلماً عن نكبة الاسطول الاميركي ومجمله ان سبع ذوارع من الاسطول المذكور فاجأها اعصار شديد على شواطي، كليفورنيا فرماها على صخور الشاطي، وحطمها تحطيماً وقد قتل عدد كبير من بحارتها

وهذا الرسم يمثل المدرعات المنكوبة مرمية على الشاطي، الصخوي حيث تحطمت

والثعلب المحتال ما
بطلت له حيل ومكرُ
انــا لا ازال احبه
فمحبة الاوطان نذرُ
لكنْ لي عذراً بهجري
والضنائن فيه عذرُ

الزوق الياس ابي شبكه

الى القراء

تاخر صدور هذا العدد من المعرض عن ميعاده نصف نهار بسبب انقطاع الشريط الكهربائي عن المحرك وتأخر الشركة « الساهرة » عن اصلاحه تأخراً سنبحث معها عنه في العدد القادم · فمعذرة من القراء واما الشركة فالى الغد

اقام محمد افندي الفتي نائب رئيس المجلس النيابي حفلة شائقة حضرها المسيو اوبوار ورئيس المجلس وعدد من النواب والصحافيين والادباء

قصد دمشق وفد من بيروت لتهنئة المعتقلين السياسيين

تنتهي اليوم او صباح الغد محاكمة محمود رفاعه ورفاقه اما الرفاعه فقد اقر ببعض الشيء واما السناوي فانه مصر على الانكار وقد اتهم المحقق العدلي راجي افندي ابو حيدر ومحمود رفاعه والشهود بالمؤامرة والاتفاق ضده

علمنا ان المفوض السامي ارسل امس الى جميع قناصل الدول اشعاراً رسمياً بالغاء الامتيازات الاجنبية

هيفاء الديرانية

« النسمات » كتاب جديد يصدر قريباً ، كتاب سكبت فيه روحها الحية الحساسة التألة السيدة سلمى صائغ ارق واعذب كاتبة عربية · و(النسمات) جميل بكل ما فيه · بمعانيه ، بالفاظه ، بترتيبه ، بورقه بحسن ذوقه · وفي رواية هذا العدد التي نأخذها عنه برهان حي على صدق ما تقول :

هي في الخامسة والثلاثين من عمرها ، ذات عنق بض جميل وذراعين مستديرتين وعضلات مربرة تتجلى فيها القوة الجبلية ورواء الشباب الغض براقة العينين مطبوعة الذقن ذات شفاه سميكة بسامة عن اسنان صحيحة لماعة

اسمها هيفاء ، وهو من الاسماء البدوية الجميلة اخذه اللبنانيون فيما اخذوه عن اخوانهم العرب ، ولم ينطبق اسم على مسمى كما انطبق اسم هيفاء على قدها الاهيف

غريبة هي الاسماء في لبنان ، تقف على نبع من ينابيعه فتسمع امرأة تنادي اولادها باسماء عربية صميمة — ياهيفاء ! ياسعاد ! او يا اسد وياضرغام · واخرى تصرخ يابشير ياروكس ياغناطيوس يانور ! صفحات تمر امام فكرنا فنذكر لبنان الاقطاعي ولبنان المتدين · · · ثم لبنان المتحمس لحرية الاتراك ودستورهم

وقد يؤخذ الغريب اذا سمع على التوالي اسماء ادمون وروبرت وفكتور تلفظها الفلاحات بلهجة

كريدي اخوان

سوق الطويلة

هل علمت قبل الان ياسيدتي!

ان معرض الازياء الحديثة في باريس قد انتقل الى بيروت؟ · · اذاً شرفي محلنا تجدي كلما يلائم الذوق من جودة الاجواخ والاصواف والحرائر الواردة علينا هذا الاسبوع · ولا سيما الفساطين الجاهزة الممتازة بجمال ازيائها الحديثة المستجابة من اشهر محلات الخياطة البارسية · لا تشتري شيئاً قبل ان تزوري محلنا لتتأكدي هوادة الاسعار وجمال البضائع

ذخيرة الصيف

اشهر محلات البيره في بيروت هي محلات

فؤاد وفوزي شقير

جادة الافرنسيين — الزيتونه

صالون لويس الخامس عشر

محل تزيين على الطريقة الحديثة بالكهرباء وغيرها للسيدات · حلاقة وتزيين للشبان · مطهرات كهربائية · روائح عطرية ولوازم زينة من احسن جنس والطف ذوق

الصوت الجميل

تسمعه من فونوغرافات « هيميغ »

Humig

الحديثة الطرز اللطيفة الشكل ذات الآلة القوية المتينة

وكلاؤها العموميون في سوريا ومصر وفلسطين

طباره اخوان

« شارع الافرنسيين »

مستوصف الدكتور واكد

يعالج الامراض الباطنة ومتخصص لامراض الاطفال

العيادة من الساعة ١٠ الى ١٢ قبل الظهر ومن ٢ الى ٤ بعد الظهر

محل العيادة اول طريق النهر بعد سوق النجارين

شفاء اكيد — الدكتور كاتسفليس — طريق النهر

سريع ومكفول بالفحص البكتريولوجي للامراض النسائية والاعضاء التناسلية ومعالجة النقطة بالكهرباء الحديثة والنظارات الكهربائية الجديدة الحقيقية للمثانة ومجرى البروستات والزهري بدواء جديد وهو اقوى الادوية المعروفة فعلا والطفها استعمالا والروماتزم المستعصي كالبرقة والانسراح الخ بدواء دون استعمال مخدرات · وذلك في عيادة الاختصاصي لأمراض الرجال والنساء الدكتور كاتسفليس

منشئها المسؤول : ميشال زكور

بقاعية او شمالية او شوفية فيقال له هذا اثر من مؤثرات الهجرة او دليل من ادلة امتداد النفوذ الاوروبي على سواحل الشرق الادنى ولكن ما قولكم بذلك المهاجر الذي اعجب بمبادئ رئيس الولايات المتحده فسمى ابنه روزفلت او بذلك الاورثوذكسي الذي يعد بين ابنائه كروباتكين

صدقوا انني لا امزح وليس فيما اقوله شيء من الغلو البديعي فالحادثة حقيقية والولد لا يزال حياً يرزق واسمه ان لم يكن كروباتكين فهو اسم يماثله من اسماء العيال الروسية الشهيرة . . . رومانوف مثلاً او سازانوف، او ماكاروف اختاروا ما تشاؤن

الى اين يجرنا الاستطراد ? لنعد الى هيفاء الديرية او الديرانية كما كانوا يلقبونها في محلة الكلنة الاميركية حيث خدمت سيدات بيوت عديدة ولم يكن تنقلها ليشينها في نظر المتأمركات اللاتي تعبدن الى السكسون والسكسونية ومن المعلوم ان ركنها الركين هو الثبات . ثم الثبات . ثم الثبات ولقد غفرن الديرانية هذه الهفوة لنشاطها العجيب وشغلها النظيف المتقن وقوتها البدنية الهائلة حتى كان يقال عنها انها تحمل اثقال البيت على ظهرها لذلك اجتهدت سيداتها العديدات في سبيل ارضائها والاحتفاظ بها

مسكينة هيفاء ! ياليتهم يعلمون سبب تقلبها ويعرفون ان في ذلك الجسم الجبار الذي لا يعرف التعب قلباً نسائياً تأكله الهم فاصبح لا يسكن يوماً حتى يستفزه القهر اشهراً واعواماً . فهيفاء تحمل هم قلبها الاخرس وتتنقل به من بيوت اسيادها في بيروت الى بيتها القديم المتداعي في القرية وبعد ان تشبع نواحاً وبكاء على حياتها المبتورة يحملها الضجر الى المدينة فتمكث شهرين ثم يعود بها شوق الاستطلاع الى القرية لعل من قادم من تلك البلاد النائية لعل من رسالة تنتظرها في بيت الكاهن الشيخ ? . . . وهكذا على توالي الايام تمر السنون وهيفاء لا تسام ولن تسام

قلب فقيرة وحكاية فقيرة ! نعم للفقيرات قلوب كما لذوات القصور تهيم وتشتاق وتتفجع وتلتاع وتحن وتئن . . . . كذلك لهن حكايات تبكي الاصلاد لو كان لها شعور ولكنها حكايات مهملة منسية ولعل الفقيرات من هذه الوجهة اقل شقاء من ذوي الحياة المبتورة اللاتي يتسلى بها الناس في سهراتهم فيسردون وقائعهن ويضربون بهن الامثال وبعد ان يشبعوهن صفعاً وجلداً وصلباً يعودون فيجودون عليهن بشيء من فضلات الشفقة كما يفعل الصبية الاشرار باعلى مسكين الميئنها اوبن عليه ثم يطرحون على اقدامه شظايا عكازه المحطمة . . .

هيفاء أمية لا تعرف سبك الالفاظ ولا تجسيم المصيبة لانها لم تدخل الى ساحة الحياة عن طريق الروايات العصرية حيث العواطف المشتبكة والاميال المتطاحنة

انها جاهلة ولكن ما ابلغها عندما تصف وحدتها، وعذابها ، وشوقها الى من يحميها ، وحنينها الى ولد يدرج في الدار ، وخوفها من الهرم الموحش ، يوم تلازم البيت المظلم حيث لا نار تدفئ ولا قلب يحنو ولا رفيق تستند اليه ، لا ابنة تعطف ولا احفاد يمرحون ويلعبون ويضحكون

كم هي شديدة التعلق باولاد اسيادها وكم تقبلهم وتدغدغهم فيطربون وترن اصوات سرورهم في جوانب المنزل . يجلسون مساء الى دروسهم فتأتي وتجلس القرفصاء وتبدأ بشغل الشال الصوفي الطويل فيكفون عن الدرس ويضرعون اليها «دخيلك ياهيفاء احكي لنا حكاية » فتضع شغلها الى جانب وتأخذ بقص حكايات حسن الشاطر والسبع عجائز والاربعين لص وابنة السلطان

قيل لها يوماً ـ يا هيفاء احكي لي حكاية

— حكاية من ياستي ?

— حكايتك انت ياهيفاء

— . . .

— ما بالك? احكي فاشاركك في همك

واخذت تلك المرأة الضحوك تتكلم عن ماضيها وتصف خدمتها في بيروت ثم موت امها ورجوعها الى البيت ثم تعرفها الى بطرس ابن حنا ـ مختار الضيعة ـ وتعلقه بها وغضب ابيه وامه وكل اهله واصراره على الزواج بها رغم (الكبير والصغير) كانت تتكلم وتضحك اذ تذكر مروره امام البيت واغانيه الجبلية وقد تضمنت ما يريد افهامها اياه . ولجهله الكتابة كانا يتفقان على طريقة للتفاهم فصليب واحد على الحائط كان يعني ان تلاقيه الى العين ، وصليبان الى الفرن ، وثلاثة الى الكنيسة ، وهكذا . . .

هنا اغربت هيفاء في الضحك فلمعت عيناها واستدارت الغمزة في ذقنها وامتلأ البيت برنين طربها

ثم تكلمت عن هربه من بيت ابيه وارساله اربعة من (الجدعان) لاختطافها في (ليلة ما فيها ضوء قمر) وامتناع الكاهن عن تكليلهما وانقسام القرية الى حزبين وفوزها في نهاية الامر بمداخلة المطران

— اذاً لماذا هجرك بعد كل هذا التعلق ?

— لم يكن لنا بيت وقد حرمه ابوه فبقينا في بيت ابي ولكن اهله ما زالوا يضمرون لي الشر فتجمهروا عليه وزينوا له السفر الى اميركا حتى ينتقموا مني وكان قد ضجر من قلة الشغل فذهب وترك لي ابناً صغيراً بعد ان حلف لي امام (الايقونة) انه حال وصوله يرسل لي اجرة الطريق

هنا هبط صوت هيفاء الى قرار واطيء كئيب فكانت دموعها تتدحرج ببطء على خديها فتمسحها بطرف ثوبها وتتابع الحديث :

ـ لم يتوفق في اول الامر فبقيت انتظر في القرية وانا اغسل لهذا واخبز لذاك واشتغل حيناً في معمل الحرير وحيناً في موسم القز الى ان جاءت الحرب فتصالحت مع اهله وسلمتهم ابني وذهبت الى حوران وبدأت اشتغل في الحقول وارسل لهم ما احصله كي يطعموا لي الولد . . . ولكنهم اكلوا اتعابي واماتوا ابني جوعاً

وصلت هيفاء الى هـذه المرحلة من الحديث وشفتاها ترتجفان وصدرها يرتفع ويهبط ودموعها تتسابق واوتار عنقها تتضخم والكلمات تخرج من فمها متقطعة متهدجة

— آه لا اريد شيئاً منك ياربي والهي الا ان ارى بطرس مرة واحدة فاحكي له قصة عذابي ثم اموت

— لماذا لا تتبعينه ياهيفاء ?

— كلما قصدت ان اسافر كان يأتيني منه مكتوب انه سيحضر ومنذ سنتين نقل من البلد الذي كان فيه وذهب الى بلد يبعد عن ذاك بالبر مسافة عشرين يوماً ، ثم انقطعت اخباره . . .

— بالله ياهيفاء كفاك تبكين

— دعوني ابكي . . دعوني اطق . كيف انساه ومحبته في قلبي حتى انزل الى القبر . ياليتني مت قبل ان ذهب وترك في قلبي هذه الحسرة»

. . .

منذ سنة اتى رجل من المهجر ولما سئل عن زوج هيفاء قال انه متزوج منذ سنين وله عدة اولاد

اما هيفاء فلا تزال تخدم من يعولها بامانة وصدق ونشاط عديمي النظير . في كل مساء تركع امام ايقونة يسوع فتصلي عن روح ابنها الطفل التي ومن اجل رجوع زوجها عدة مسابح . . . واحدة لقلب يسوع . وواحدة لمار فرنسيس . وعشرات لام الاله . وفي اكثر الليالي تنتبه سيدتها ليلاً على صوت انين وتنهد عميق فتنهض اليها وتهزها في فراشها قائلة :

— ياهيفاء ياهيفاء مابك يابنتي ?

فتفتح هيفاء الجبارة ـ المرأة التي تحمل البيت على ظهرها ـ عينيها السوداوين ، وتزيل بيدها القوية شعرها الفحمي المسترسل على خديها العندميين وتقول :

— لا شيء . . . لا شيء . . . تعبانة ياستي

ساعات لونجين

اطيب الساعات واتقنها . وكلاؤها
الياس ابو عكر = ساحة الاتحاد

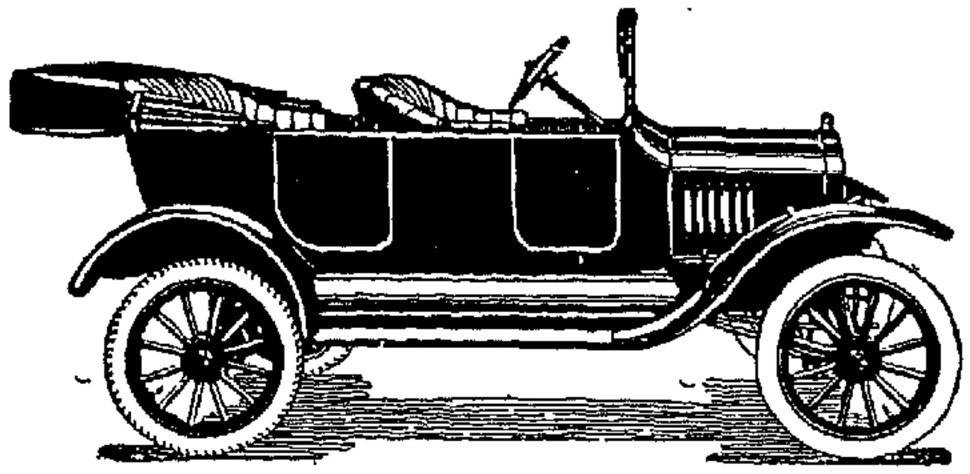

شارل القرم وشركاه على الصور.

وكلاء اتوموبيلات فورد ومحراث فوردسون وجميع الالات
والمعدات الزراعية ومحركات الاوتوموبيلات ولوازمها :

فروع المحلات

دمشق الصالحيه — حلب الناعوره — طرابلس التل — اللاذقية شارع السراي — الاسكندرونه شارع النهر

اقرأ وجرّب

هذه صورة الدكتور طاكر يستعمل اختراعه للشفاء من الأزمة وضيق النفس التي ظل يعاني آلامها عشرين سنة ثم شفي منها بدون علاج داخلي

يطلب هذا العلاج من وكلائه الوحيدين في لبنان وسوريا — ميشال سيرجي وشركاه

رستوران بيروت

لصاحبه الياس ياسمين

المطعم الصيفي الجميل فيه المآكل العربية الفاخرة على اختلاف انواعها . وهو مجتمع المحامين والادباء والتجار . فاقصدوه في اول ميناء القمح تجاه محلات السيوفي

اواني كنسية جديدة

في محل — ميشال القرم — سوق الجميل

عند شقير على البرج

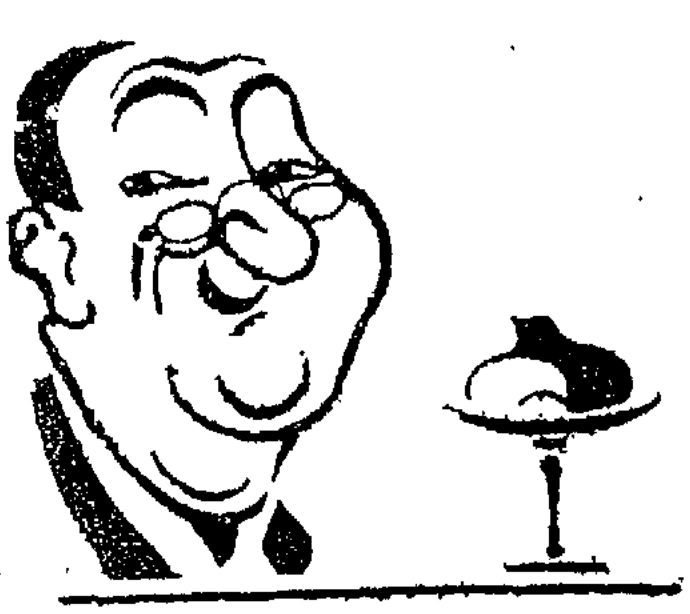

هذه بوظة باردة ومشكلة ومعطرة وبتقتل الشرب

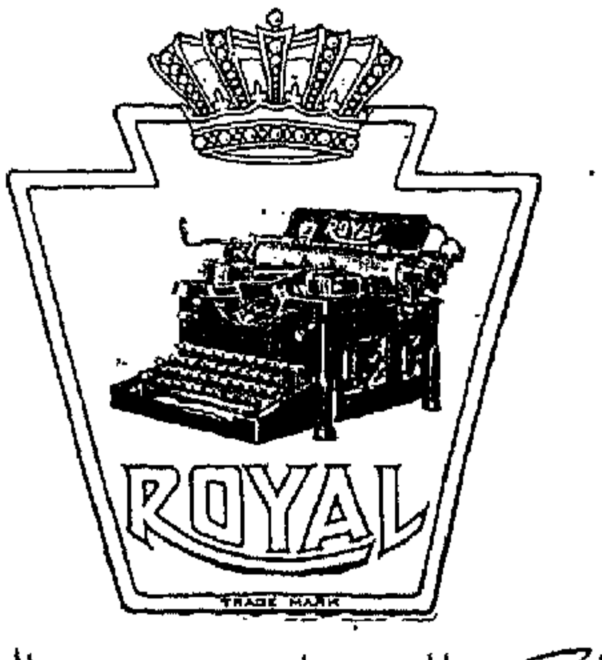

ماكنة الكتابة « رويال »

اشهر ماكنات العالم ـ وارد محلات داود القرم واولاده شارع البوسطة ـ بيروت

صباغه ومسك

اشهر محل للازرار ولوازم الخياطة تأسس حديثاً
في بيروت — سوق الطويلة

الذوق الباريسي

تجده شكلاً وصورة في محل الاحذية الشهير على النورية خاصة سعيد خليل المعروف بمحل (الذوق الباريسي) . ليس لحسناء ولا لسيدة ولا لشاب عصري غنى عن ارتياد هذا المحل اذا احبوا ان يلبسوا احذية على موضة باريس

والكلام في سرك ان اسعاره عجيبة بالمهاودة الرخص بالنظر الى الجودة

Classeur de bureau avec coulisse 55 L. S.; bureau américain 55 L. S.; chaise tournante 10 L. S.; en Vente à la Papeterie Angelil, rue de la Poste.

البضائع العصرية والنوفوته الحديثة للرجال والسيدات وشوكولا ماركي تجدها في محل

عبدالله سلوان

سوق الجميل ـ بيروت

فصل الشتاء

اقبل علينا الشتاء وقريباً يحمل علينا البرد حملته القاسية فلنستعد لملاقاته بزيارة مخزن السنترال لاصحابه شقير وفرح ونشتري لوازمنا الشتوية من مشمعات وكالوشات وشلحات صوف وقمصان وكلسونات صوف وكنزات من اطيب الاجناس والطف الموض الحديثة

لا خسارة بالزيارة والفرجه بلاش

مطبعة الجليل . شارع البوسطة . بيروت

الذى يبعث على الإمتاع ويدفع إلى الإعجاب فى شعر ابن حمديس أصالة التعبير والنظرة الفاحصة كأنها عين لاقطة .

وقد يكون الشيء الذى تناولته القصيدة معنى مطروقاً أو مجرد حادثة عابرة ، ولكن الذى يأخذ بمجامع الحس هو جمال التعبير وشاعرية الإحساس ولمس أوتار النفس وتحريك المكامن .

فالرسام قد يرسم بألوانه وأصباغه أشياء عادية أو أموراً متداولة نجدها فى الخارج ، ولكن براعة التصوير تكمن فى الإثارة وطريقة العرض ودقة التعبير عن الأحاسيس التى تدل عليها هذه الظواهر أو قل الإبداع فى تحريك الوتر النفسى فى « الروح » واللمسة الفنية ، ومن هنا يظهر الفارق بين رسام ورسام وبين شاعر وشاعر .

إن جلال الفن يصبغ على « الأشياء » والموضوعات المتناولة ما يجعله مقبولا جميلا ومترجماً عن أحاسيس باطنية ومشاعر عميقة فتشعر نحو القصيدة أو التحفة الفنية بشيء من الروعة والدهشة أو الرهبة والإعجاب .

وهنا يكون مبعث الإثارة .

وقد تناول الشاعر ابن حمديس — فى المجال الوصفى — كما سبق أن أشرنا — أشياء حسية ، وأشياء معنوية ، وأشياء فى بؤرة الشعور ، وما وراء الحواس أيضاً .

قال ابن حمديس يصف أحد الأديرة وراهبة تبيع الخمر

وقد جاءها مع ثلة من أصدقائه آخر الليل عند ما كانت تغلق الدير :

وراهبة أغلقت ديرهـــا فكنا مع الليل زوارها
هدانا إليها شـــذى قهوة تذيع لأنفــك أسرارهـــا
طرحت بميزانهـــا درهمى فأجرت من الدن دينـــارها
تفرس فى شـــمسه طيبها مجيد الفراسة فاختـــارها
فتى دارس الخمر حتى درى عصير الخمور وإعصارها
يعـــد لما شئت من قهوة سنيها ويعرف أخبـــارها
وعدنا إلى هالة أطلعت على قضيب البان أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم تثور فيقتـــل ثوارهـــا
وقد سكنت حركات الأسى قيـــان تحرك أوتارهـــا
فهذه تعـــانق لى عودها وتلك تقبل مـــزمارهـــا
وراقصـــة لقطت رجلهـــا حساب يد نقرت طارها
وقُضْب من الشمع مصفرة تريك من النار نوارها
كأن لها غمداً ضعفت وقد وزن العدل أقطارها

ويدفعه هذا الجو الشاعرى ونغمات الموسيقى وألحان الغناء وجمال الطرب . إلى وادى الذكريات فتهيج عواطفه وتنهال أحاسيسه صوب موطنه . وهنا يبلغ الإحساس الشاعرى ذروته فى نفس الشاعر فيهتف من أعماق وجدانه :

ذكرت صقلية والأسى يهيج للنفس تذكارها

ومنزلة للتصابى خلت وكان بنو الظرف عمارها
فإن كنت أخرجت من جنة فإنى أحدث أخبارها
ولو لا ملوحة ماء البكاء حسبت دموعى أنهارها

* * *

وهو عند ما يستمع لنغمات الحادى وتصل إلى أذنيه أهازيج القوافل وأغانى المسافرين فيجد فى ذلك صورة تحرك مكامنه ونغمة تهز أوتار نفسه وتشده إلى وطن يعبده ، وشاطئ سيطرت عليه قوات الروم :

دعونا نسائر حاديًا قاد نحوها
مسامعنا منه الحداء المنغم
فما هذه الأهداج إلا قلوبنا
حبائبنا فيها سرائر تكتم
أرجع بالشوق الحنين وإنما
يهيج حنيني عودها حين يرزم
فلله عمر مرّ بى فكأننى
به فى جنان الخلد كنت أنعم

وابن حمديس احتفظ لنا فى شعره بكثير من أوصاف القصور والنقوش والنافورات . ونرى قطعة شعرية نقل فيها صورة قصر بما حوى من زخارف فى أبوابه وسقوفه وممراته ، وهو فى هذه الناحية قد يفوق أوصاف البحترى للقصور والتماثيل ، وها هوذا

ابن حمديس يصف أحد القصور التى دلت على براعة الهندسة العربية والفن الإسلامى :

وضراغم سكنت عرين رياسة
تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النظار جسومها
وأذاب من أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك
فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما
أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها — والشمس تجلو لونها
نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول
ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه
درعا فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها
عيناى بحر عجائب مسجورا
قد سرجت أغصانها فكأنما
قبضت بهن من الفضاء طيورا

وكأنمـــا تأبى لوقع طيرهـــا
أن تستقل بنهضهـــا فتطيرا
من كل واقعـــة ترى منقـــارها
ماء كسلسال اللجين نمـــيرا
وكأنمـــا فى كل غصن فضـــة
لانت فأرسل خيطهـــا مجرورا
وتريك فى الصهريج موقع قطـــرها
فوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا
ضحكت محاســـنه إليك كأنمـــا
جعلت لهـــا زهر النجوم سحورا

وهذا نوع من و القصائد التى تصور لوناً من الحضارة وآثارها. وينقل الشاعر لنا صورة النقوش والرسوم كأنما يرسم لوحة تحكى ما صورته يد الفنان العربى فى قصور الأندلس، وتلك الأبيات من قصيدة فى وصف قصر «المنصور بن علناس». وكان بالقصر بركة عليها أشجار من ذهب وفضة، وكانت تنساب المياه من فروع الشجرة وعلى البركة الرخامية تماثيل منحوتة على هيئة أسود. كما يشاهد أسود قصور الحمراء وغيرها. والشاعر إذا أخذت عينه مناظر أخاذة مثل نهر من أنهار الأندلس قال وهو يشحن الأبيات بوافر من التشبيهات :

ومطرد الأجـــزاء يثقل متنـــه
صبـــا أعلنت للعين ما فى ضميره

جريح بأطراف الحصى كلما جرى
عليهـــا شكى أوجـــاعه لخريره

كأن جبـــاناً ريع تحت جبابه
فأقبـــل يلقى نفسه فى غديره

كأن الدجى خط المجرة بيننـــا
وقد كللت حافاته ببدوره

شـــربنا على حافاته دون سكرة
نقبـــل شكراً منه عين مديره

ومن أوصاف ابن حمديس يصور خسوف القمر :

والبـــدر قد ذهب الخسوف بنوره
فى ليلة خسرت أواخر مدها

فكأنه مرآة قـــين أحميت
تمشى احمرار النار فى مسودها

والشيب والمشط والمرآة صورة رسمها « ابن حمديس » :

ولى شـــبابى وراع شيبى
منى ســـرب المهـــا وفضّه

كأنمـــا المشـــط فى يمينى
تجـــر منـــه خيوط فضّـــه

* * *

ولقد كان الشاعر « ابن حمديس » فى مناهجه الوصفى وتنقله بأحاسيس المستمع للقصيدة أو القارئ لها لا يقتصر على موضوع واحد يضمنه القطعة الشعرية ، بل تراه يتنقل فى الوصف وتلمس منه أو تلحظ عليه حالة « القلق » فهو فى القصيدة الواحدة يتنقل من وصف المحسوس إلى وصف المعقول .
أو يتدرج من المعقول إلى المحسوس .

بل من الناحية النفسية فى القصيدة الواحدة قد ينتقل من الرضا والاستسلام إلى القلق والاضطراب حتى لتكاد أن تلمس منه — أحياناً — رائحة التشاؤم ، وتلحظ ملامح الملل واضحة فى نفس الشاعر . ومرجع هذا إلى نفسية الشاعر غير المستقرة ، أو هو فى الواقع صدى وأثر من الأحداث فى حالته النفسية .

أما عن سبك القصيدة وشد أوتارها وتوزيع ألوان اللوحة وتسليط الأضواء ، وأبعاد الخطوط فإن القارئ للقصيدة فى تأمل وتذوق يجد أن القصيدة — لا سيما فى المطولات منها — تكاد أن تنعدم منها الوحدة الفنية والنغم المنسجم — أى الوحدة ذات الوتيرة — فهى لا تسير على وتيرة واحدة . . لا نقصد هذا من ناحية الإيقاع والجرس الموسيقى ، بل من ناحية الموضوع والمشمول .

والناقدون فى الأدب العربى يلاحظون هذه الظاهرة فى الشعر العربى على مختلف عصوره ، وفى مختلف أبعاده وأغواره ،

وفى عصور ازدهاره ، أو فى آونات معطياته الحضارية وفى عهود انحطاطه وتأخره .

فالشعر العربى الملتصق بالعمود والقافية سارت القصيدة فيه على منهج التنقل فى الموضوع أو التنوع فى تصوير الحالات والأوصاف .

فالشاعر فى القصيدة الواحدة قد ينتقل فجأة وبلا رابط من غزل إلى رثاء ، ومن مديح إلى وصف مأدبة ، ومن فلسفة ذات اتجاه تفاؤلى أو تشاؤمى إلى وصف معركة حربية ، أو ينقلك إلى أجواء ليلة ساهرة . ومن تصوير أزمة فردية وحالة شخصية أملتها ظروف الحاجة الموحية للنظم إلى سبحات صوفية ، أو من تحليق فى خيال إلى واقع مرير .

وهكذا يظل الشاعر يتنقل فى أوصافه عبر القصيدة الواحدة إلى أكثر من حالة ، وإلى حشر أكثر من موضوع .

وهكذا كان يصنع الشعراء حتى العماليق أمثال « أبى العلاء المعرى » و « المتنبى » و « البحترى » و « أبى تمام » و « ابن زيدون » وأضرابهم .

ولذا تجد كثيراً من قصائد « عبد الجبار بن حمديس » قد يبدأ فى المطلع بالمديح ثم ينتقل إلى الغزل ويختم القصيدة بالشوق للوطن ، أو يبدأ بالتحنان والشوق ويتدرج إلى المديح وهكذا .

وأنت تتذوق هذه الأوتار وتنصت لهذه الأنغام التى صاغها ابن حمديس تلحظ فى نغم القصيدة أو فى مضمون تعابيره ظاهرة الشكوى من الزمان وإظهار التبرم من تصاريف الأحداث.

ولكن الشاعر تراه يصوغ شكواه وتبرمه فى أسلوب شائق وتعبير لماع ، وتلمس فى تعابيره طلاوة لا تنفرك من القصيدة ، بل تدفعك إلى مواصلة القراءة والإنصات ، ويدفعك هذا إلى التأثر بل التفاعل معها . كما أن الناقد والمتأمل فى قصائد « ابن حمديس » يلحظ تغلب صفة الجد والاتزان ، ولكنه — فى الواقع — هو جد ليس فيه تكلف ، وهو اتزان لا يشوبه وقار مصطنع .

فالشاعر لم يكن — على ضوء ما وصل إلينا من شعره — ماجناً معربداً فى تعابيره وأوصافه ولم يكن نابى اللفظ ، أو مستهجن الأسلوب .

لا تجد فى شعره عبارات تحمل المجون والإسفاف .

ولكن ليس معنى هذا أن شاعرنا كان صوفى المذهب والطريقة ، بل كان « عبد الجبار بن حمديس » شاعراً يعيش فى عهد حضارى وجوّ ملآن بالمسارح التى تجذب إليها الشعراء .

وهو أخو سمر وترحل وشاهد بنات الحان وتحدث إلى الساقيات ، ووصف الراقصات وعازفات اللحن الطروب فى

مجالس السمر ، وارتشف سلافة العناقيد .

والشاعر كان فى مآسى سرقوسة وإشبيلية وتونس قد غشى مجالس اللهو والمجون بل هو فنان موهوب وشاعر مفطور يرسم لنا صورة فنية لمجالس الخمر والرقص ، ولواعج الحب وتباريح الشوق ، ولحاظ العيون الفواتك ، ودلال المائسات .

و « ابن حمديس » — كما تلمس من غزله وصباباته — لا يبعد أن مر بتجربة الحب ولواعجه : من آمال تداعب . وأحلام تهدهد ، وآلام تؤرق وتهز . إنها تباريح تدفعه إلى الآهة الشاعرية الطويلة ، وقد تلمس هذه الظلال أكثر وضوحاً فى قصيدته التى أوحت بها جاريته الغريقة التى ابتلعها الموج عندما كان مسافراً فى المركب :

وواحشتا من فراق مؤنسة ... يميتنى ذكرها ويحييها
أذكرها والدموع تسبقنى ... كأنى للأسى أجاريها
جوهرة كان خاطرى صدفا ... لها أقيها به وأحميها
يا بحر أرخصت غير مكترث ... من كنت للبياع أغليها
أبتها فى حشاك مغرقة ... وبت فى ساحليك أبكيها
ونفحة الطيب فى ذوائبها ... وصبغة الكحل فى مآقيها
عانقها الموت ثم فارقها ... عن ضمة روحها فيها
ويلى من الماء والتراب ومن ... أحكام ندين حكمنا فيها

أماتها ذا وذاك غـيرهـا   كيف من العنصرين أفديها

ومن أبيات الشاعر الغزلية فى وصف الجمال :

يا غزالا حرم اللـ   ـه دمى وهو يحله
إنمـا الحسن محـل   لك أو أنت محـله
بعضه فى أوجـه النا   س وفى وجهك كله

أو فى هذه الصورة الغزلية التى وصف فيها رقة قلبه وتعذيب صاحبته له :

عذبت رقـة قـلبي   ظلمـاً بقسوة قلبك
وسمت جسمى سـقماً   وما شفيت بطبك
أسخط كل عـدو   رضيتـه لحبـك
من لى بصبر جميل   على رياضة صعبك
فيا تشوق بعـدى   إلى تنسم قربـك
ووجنـة غمستهـا   فى الورد صنعة ربك
لقد جنحت لسلمى   كما جنحت لحربك
فبالدلال الذى زا   د فى ملاحـة عجبك
بكى من الأسر قلباً   عليـه طابع حبك
فإن نعمت بعتبي   فقد شقيت بعتبـك

* * *

وهو من الشعراء القلة الذين استطاعوا فى موهبة خلاقة أن

يرسموا بالشعر الصورة المتحركة بتشبيهات بعيدة عن طابع التكلف أو التحايل على تصيد التشبيهات المغرقة؛ فهو يرسم لنا فى ثنايا قصائده باللفظ ما يرسمه أو ينقله الفنان المصور .

أثبت فى شعره الصورة المتحركة المتوجة ، كما رسم الصورة الثابتة .

ويرسم الأصابع التى تتحرك على الأوتار .

والصورة الصوتية — إن صح هذا الوصف — فهو يسجل خرير المياه واصطفاق الأمواج وهو يرسم أو « يسجل » صورة للروائح والأزاهير والعطور وأغاريد الطيور .

ويشغل فى رسمه وأصباغ ألوانه ونغمات أوتاره كل حواس العين والأذن والأنف . بل أهم من هذا التحريك الخارجى ، فهو يحرك المشاعر حتى لكأنه ينقل الصورة الشاعرية بأدوات الرسم والعاطفة لا بألفاظ شاعر ، فهو من هذه الأنحاء وبتلك المشاعر والموهبة دقيق الحس ، ذكى الملمح ، وهو عندما يصف الخمر والرقص والغوانى ربات الدلال لم يكن من تصنع الخيال المجرد ، أو من منابع التصوير الذهنى المتكلف . بل هو شاعر أتاحت له أجواء الأندلس وشواطئ صقلية أن يشاهد هذه الأشياء مشاهدة العين أو لم يكن فى حاشية أمير أيام مجد المعتمد وعزه .

كانت ملاهى الأندلس وأفريقية غاصة بالحور والغانيات وألوان من جمال بنات الروم وبنات العرب ، وأشكال الجمال الممتزج بين أوربا وأفريقيا ، ذوات العيون العسلية ، والعيون الدعج ، والضفائر الطويلة .

ولقد أمدته مشاهداته الحسية وتذوقه للجمال بذخيرة من معين الوصف وساعدته على التفنن فى الرسم والتصوير .

وبرغم أن الشاعر انغمس فى حياة الشعراء .

وبرغم نكبته وجرحه العميق فى صدره ، إلا أنه يلجأ للموعظة والعبرة ، حتى كأنه فى بعض أبياته يرمى ريشة الفنان المصور ويطرح أحلام الشاعر ليرتدى مسوح الواعظ . فيلجأ إلى كلام العبر والحكم ويحذر من اللهو وغرور الدنيا ، ويصف الشيب ، ويذكر الموت والفناء .

وتجد الشاعر ابن حمديس يقول فى الوعظ والشيب كما يقول فى الغزل واللهو والمرح ؛ فيصف الحياة ومباهج الدنيا ومتعها ، ويقول فى التحذير منها والإنذار بعواقبها ، وتلمس فى مجموعة قصائده هذه المعالم :

- الوصف الفنى .
- الغزل والصبابة .
- الوطنية المتأججة .

● الموعظة والعبرة .

وابن حمديس شاعر – بلا شك – قد تأثر كل التأثر بالمحيط القلق والأجواء المضطربة التى شاهدها وعاش فيها ، سواء فى بلده الأول أو فى مهجره وتنقلاته ، وتجربة الاغتراب والفراق والابتعاد هى عوامل جعلته فى أوصافه الشاعرية يلحظ الأحداث الفردية والجماعية بدقة وحاسة حساسة .

ويصوغ لنا مقطوعات فيها النغمة المحركة .والمقطع المعبر المؤثر . وأسلوب الشاعر البلاغى يدل على أنه أديب ثقف ثقافة رفيعة ، فلديه فى جعبته حصيلة لغوية تسعفه وتسند شاعريته ، وهو على وجه عام قد تأثر بالشعر المطعم بالحكمة والتأمل وثاقب النظر ، والاتجاه المشبع بفلسفة الإيمان والعقيدة فى تصرف المقادير .

وتتضح بعض ملامحه النفسية بصورة أوضح فى باب الشكوى. وهل يلام الشاعر المغترب إن نفخ معزوفاته فى ناى الشكاية ؟ ! .

وهو فى هذا اللون من الشعر قد يعبر عن حالة المجموع وصدى الأحداث المحيط وتعبيراً عن أهله وبلده وأهل جيله .

وقد يعبر عن آلام عامة ويطرق أبواباً كلية . ومن هنا هو فى أنات من شكاياته وتوجعاته قد يجد صاحب الألم والحرقة فى أى بلد أو أى جيل – فى بعض قصائد ابن حمديس – تجاوباً وصدى وترجمة نفسية عميقة الإحساس متبلورة المشاعر .

وهكذا الصدق والتجاوب من مقاييس الإبداع الفنى .

ومقطوعات ابن حمديس ذات الصبغة الغزلية قد يلمس فيها من أولعه الحب ، وأرقته تباريح الشوق صورة نفسية وحكاية ذاتية ، حتى يحس كأنما القصيدة صبغت له ، وخيط الثوب على قده ألم يطرق الشاعر المتغزل وتراً مغموساً فى نفس العاشق ، فحرك إحساس الواله المحب .

وعندما يقرأ المتشائم والمتألم والدامع المتحرق قصيدة من قصائد الشكاية وحرقات « ابن حمديس » قد يجد فيها تجاوباً نفسياً وصدى عميقاً ، أو صورة محسة لما فى قرارة نفسه من ألم دفين وشكاية هامسة أو مدوية صارخة .

فهى الإطار العام قد لا تحكى حادثة معينة أو قصة فرد معين .

وإن كان مبعثها حادثة معينة ودافعها واقع محس فردى . غير أن شكوى الشاعر من الزمان وتبرم نفسه من الأحداث قد يأخذ صورة عامة وكليات مجملة .

ومن هنا ، فى معزف الإحساس والوتر المغموس ، قد يخرج بنا الشاعر فى قصائده من دائرة الإحساس الفردى ومن وصف الحادثة المعينة إلى الإحساس العام حتى ينتقل الشاعر فى استطراداته وفضفضة أوصافه من تصوير حالة خاصة إلى حالات عامة . فعندما يشكو تصرف الدهر ، أو غزو الشيب ، أو تقلب

الأحداث . هذا شيء عام يحدث لكل متألم .

ومن هنا يخرج من دائرة ضيقة إلى أحكام عامة ، فيجد الإسعاف ، ويتلمس طرق النجاة والإنقاذ في أنواع من الوصايا ، والحكم ، والإيمان ، والعبر ، ويحاول أن يبث الشجاعة المعنوية في النفس .

ومن هنا — من جانب العموميات — تلمس في ثنايا شعره صوراً إنسانية ، لكل الناس على مختلف البلدان والأزمان . ولكنها — إنسانية — ذات منهاج عام غير مرسوم .

فلا نستطيع أن نقول عنه ما تقوله المقاييس الجديدة في تفهم إنسانية الأدب ، أو عالمية الشعر ويكون من الإعنات إخضاع هذه المقطوعات إلى المقاييس المنهجية المستحدثة .

ومع هذا ، فهناك جانب آخر من زاوية الإضاءة والدلالة ، فشعر ابن حمديس لم يمت بفوات زمن « ابن حمديس » .

وصورة القلق النفسي ليست قاصرة في تصويره وكما رسمها في شعره لفرد كان يعيش في القرن السادس الهجري . بل يستطيع أن يقرأها ويتذوقها الشاكي الباكي ويلمح فيها صورة لنفسيته في ثنايا القصيدة .

ومن القطع الشعرية التي صور فيها « ابن حمديس » جوانب من — القلق — والحيرة — والنظرة إلى الدهر نظرة دافعها الألم .

تلك الأبيات التى صور فيها كيف أن أحداث الزمن هزته وزرعت الشيب فى رأسه ، وأن الدهر ملآن بالعجائب ، بل إذا خلت جعبته من الأنباء وسرد الأخبار وحكايات العجائب ، فإن لدى « ابن حمديس » ما يقرأه على مسامع الدهر من ألوان الغرائب . ولكن — مع هذا — مع الكثير الذى فى جعبته ، فهو صبور جسور ، لديه عزم .

وكأن عزم شاعرنا سيف بتار وسهم صائب مهما تجمعت تلك المعضلات التى تزحم طريقه . وتحاول أن تسد عليه المسالك حتى دفعته إلى الاضطراب فى بعض الحالات .

ويصور الشاعر صبره وجلده إزاء الاضطراب النفسى والقلاقل بشكل لا يخلو من مبالغات الشعراء . إنه يبعث أنفاسه برداً وإن كانت فى قرارة نفسه من أفاعيل دهره وأحداث زمنه لهباً مستعراً .

يا له من صانع معجزة — برد يصنعه من اللهيب المستعر — جدير بالحر الأبى أن تلقاه صاحب جلد برغم أن الداء لديه كمين والألم عميق والجرح ينز فى نفسه .

الدهر . . ما أكثر شكواه من الدهر . . ومرة أخرى : هل يلام على هذا شاعر مغترب وصاحب نفس جريحة ؟ !

واو أطلت النظر ، بل واو أسرعت فى النظر ، لألفيت « ابن حمديس » لا ينفك من ذكر الدهر ، هكذا بصيغة التعميم والإجمال .

فهو يشير إلى الدهر وشوائبه، والشكاية من الدهر من طبع وشيمة شعراء البكاء والشكاية .

ولكن بكاء شاعرنافيه عزم ، وأنينه الملتهب به حزم قد يبلغ فى تصويره حد المبالغات وأسلوب الغرور والإطناب المكرر . وهل خلا الشعراء يوماً من الغرور عندما ينزلقون إلى الحديث عن أنفسهم ، وفى يدهم ثروة من الألفاظ يصوغونها حسب رغبتهم ؟

تلك طبيعة مدرسة القدامى ، بل وحتى المحدثين .

فهل هذه « الأنا » فى شعرهم ، وهذا الحديث عن النفس من قبيل « التعويض » عن مطولات « المديح » التى أصبغوها على الغير ، من أمراء أو صعاليك ؟ !

وشاعر يغرق فى مدح الناس لقاء إكرام أو فسحة فى مجلس وبضعة دنانير . أتراه يضن على نفسه بالحديث وإظهار محامده ؟ !

حتى لا يكون بينه وبين الناس . أو بينه وبين نفسه أقل منزلة وأحط قيمة .

والآن ، وقبل أن يتسرب بنا القول إلى أودية أخرى . إليك جانباً من قصيدة يتحدث فيها ابن حمديس عن الدهر وأفاعيله مع الشاعر المغترب :

هل أقصر الدهر عن تعنيت ذى أدب
أو قال حسبي من إخمال ذى حسب
لا يلحظ الحـــر إلا مثلمـــا وقعت
على أخى سيئات عين ذى غضب
وكيف يصفو لنـــا دهـــر مشاربـــه
يخوضهـــا كل حين جحفـــل النـــوب
واو خلا الدهر ذو الأنباء من عجب
أكثرت منـــه ومن أنبـــائـــه عجبي
قرأت وحـــدى على دهـــرى غرائبـــه
فمـــا أعاشر قومـــاً غـــير مغـــترب
أحلت عزمى عـــلى همى فقطعـــه
كأن عزمى عـــلى صمصامتى الذرب
ما قرّبى السير فى سهـــل ولا جبـــل
إلا كما قر جـــارى المـــاء فى صبب
ولم أضق فى السرى ذرعـــاً بمعضـــلة
قـــد زاحمتنى حتّى ضـــاق مضطربى
وتـــرتقى حـــر أنفاسى فأبعثـــه
بـــرداً وإن كان مستبقى من اللهب
وأحـــرِ بالحـــرّ أن تلقـــاه ذا أدب
وإن تبطن داء قابـــل الوصب

وفى حالات قد يتذرع بالصبر ، وتداعبه بوارق الأمل ،

وأحلام الأماني ، فيشد من عزم نفسه باعثاً الثقة في نفسه .

ولكنه في أحايين كثيرة قد تبلغ به حالة الفوران إلى حافة اليأس ، ويشاهد بمنظار القلق الحائر صنع أيامه فيأخذ في تعداد مساوئ دهره ويصور أناجيل زمنه .

فهو يتأوه في حرقة غاصة على ما فات وضاع من زمن المرح ، وأطاييب الشباب . وبعد طوفة تأملية في وادي الذكريات ، وبعد نظرة في باعث العظة . تنساب خواطره الجياشة ، ويلجأ إلى أسلوب الوعظ ، ثم يطلب الغفران والإنابة كطائر جريح ترف جناحه ، ويجد الدفء في هذا العش . فقد وقف على مشارف العمر ، وقطع أشواطاً طويلة على درب الحياة ، وأدمت قدميه وعورة الطريق . وصعوبة المسالك . قد بلغ السبعين . . ونزته آلام وجراحات . . وانسلت من بين يديه آمال ، فيرى الدنيا غرورة ، والأماني كواذب . .

بئست الصاحبة الدنيا التي سلبت منه ثوب الشبيبة . وألبسته ثوب المشيب . . فيذكر الموت وأشباح الفناء :

وعظت بلمتـــك الشائبـــه وفقد شبيبتك الذاهبـــه
وسبعين عاماً تـــرى شمسها بعينك طالعـــة غاربـــه
فويحـــك هل عبرت ساعة ونفسك عن زلة راغبـــه
فرغت لصنعك ما لا يقيلك كأنك عاملة ناصبـــه
وغرتك دنيـــاك إذ فوضت إليك أمانيها الكاذبه

أصاحبة ! خلتها ؟ أنها … بأحداثها بئست الصاحبه
أما سلبت منك برد الشباب … فهل يسترد من السالبه
وإن دقائق ساعاتها … لعمرك آكلة شاربه
وإن المنية من نحوها … عليك بأظفارها واثبه
ألم ترها بحصاة الردى … لكل حميم لها حاصبه
فيا حاضراً أبداً ذنبه … وتوبته أبدا غائبه
أذب منك قلباً تجارى به … سواكب عبرتك الساكبه
على كل ذنب مضى فى الصبا … وأتعب إثباته كاتبه
عسى الله يدرأ عنك العقاب … وإلا فقد ذمت العاقبه

* * *

وقد تناول الشاعر وهو فى مشارف العمر صوراً من الشعر الذى هو من وادى المتصوفة ولهجة النساك .

وهذا الشعر الزهدى كان فى فترات ديدن المتقدمين .

ولم يكن نظم ابن حمديس فى مجال الزهد عن تصوف ولا عن منهج اعتنقه بل هى من تلك الحالات التى تعترى الناس حتى الأفراد العاديين ، فهم قد يجنحون للتمسك وتراهم فى الشوط الأخير ونهاية المطاف من العمر يحجون ويسبحون ويكثرون من الاستغفار والإنابة فى مشارف العمر ، أو عند الأزمات والملمات ، وإذا هزتهم الأحداث .

وفى الواقع أن قصائد وأبيات ابن حمديس التى تلمس فيها روائح التصوف لم تكن صادرة عن منهج صوفى بل هى من ظواهر

حالات الأوبة إلى محراب الله واللجوء إلى رحاب السماء ، ومن هذا نلمس فى هذه الصورة من قبيل الابتهالات والاستغفار :

يا ذنوبى ثقلت والله ظهرى — بان عذرى فكيف يقبل عذرى
كلما تبت ساعة عدت أخرى — لضروب من سوء فعلى وهجرى
ثقلت خطوتى وفـــودى تعرى — غيهب الليل فيه من نور فجرى
دب موت السكون فى حركاتى — وخبا فى رماده جمر جمر
وأنا حيث سرت آكل رزقى — غير أن الزمان يأكل عمرى
كلما مر منه وقت بربح — من حياتى وجدت فى الربح خسرى
يا رفيقًا بعبـــده ومحيطـــا — علمه باختلاف سرى وجهرى
هل بقلبى إنى صلاح فسادى — منه واجبر برأفة منك كسرى
وأجرنى بما جنـــاه لسانى — وتناجت به وساوس فكرى

* * *

والشاعر يكثر من التأمل العميق ، ويطيل النظر فى مشكلة زوال العمر ، وتقلص ظل الحياة ولكن هى نظرات أو انتفاضات لا عن منهج فلسفى بل عن باعث الحسرة من فوات العمر وتصرم الأيام .

فهو يرى ويحس فى ألم أن عمره ينساب على شاطئ الحياة ويقترب من هوة العدم . فتراه كلما قطع مرحلة وقف يتأمل ثم يتأوه .

عندما يبلغ الخامسة والخمسين — وإذا بلغ الستين — وإذا وقف على شاطئ السبعين له فى كل شوط وقفة تأمل ولهجة

تحسر ، أو هو نوع من محاسبة النفس ومراقبة سيرهما فابن حمديس يقول :

كملت لى الخمسون والخمس ووقعت فى مرض له نكس
ووجدت بالأضداد فى جسدى غصناً يلين وقامة تقسو
وتنافرت عنى الحسان كما لحظ المصور جآذر خنس
وابيض من فودى من شعرى وحف كأن سواده النقس

ثم هو يلجأ للسماء فى دعاء وتضرع ناظراً إلى يوم الحساب . وينبع دعاؤه عن إيمان :

يا رب إن النـــار عاتيـــة ولكل سامعة لها حس
لا تجعلن جسدى لها حصبا فيـــه تحرّق منى النفس
وارفق بعبد لحظة جـــزع يوم الحساب ونطقه همس

* * *

فهل هو زاهد ؟ ! لا لم يكن زاهداً .

هل هو ناسك ! ؟ لا لم يكن ناسكاً .

بل هى صورة من اللمسات الشاعرية فيها إنابة ولجوء إلى الحقيقة أو هى من أنواع أساليب الاعتراف والمحاسبة ، وهى نفس تتوق إلى محراب التوبة ، وفى عديد من الأبيات نسمع من « ابن حمديس » لهجة الوعظ ، وحتى الشاعر « أبى نواس » كان فى بعض الحالات يقف واعظاً ، كما كان بعض الفقهاء

والمتصوفة يقفون موقف المتغزل .

وهناك فى مسارح الأدب العربى وأشكال تعابيره . . ظاهرة : غزل المتصوفة ، وزهد الشعراء .

وفى الواقع كلاهما لون قد يدخل من باب التصوير الفنى ، وليس ولا بد أن يكون المتصوف عاشقاً وغارقاً فى الوله .

كما أنه ليس ولا بد أن يكون الشاعر فى منظوماته الزهدية الورعية صوفياً ناسكاً . وعلى كل حال ، ومهما كانت الأسباب والدوافع تلحظ فى أبيات لابن حمديس أنه كان يتناول تصوير — النهاية ، وغروب شمس الإنسان ، ويدور حول السؤال الذى حير أدمغة البشر . . .

ما هو المصير ؟ أين نهاية الشوط ؟ !

وإنه لمصير مخيف مربك . فالدنيا محفوفة بالشهوات ومزالق الغرور ، وابن حمديس يقول :

بيتك فيه مصرعك	وفى الضريح مضجعك
غرتك دنياك التى	لها سراب يخدعك
همت بحب فارك	وقلما تمتعك
يضرك الحرص بها	والزهد فيها ينفعك
لا تأمنن منية	إن عصاها يقرعك
مغربك القبر الذى	يكون منه مطلعك
إن فرقتك تربة	فالله سوف يجمعك
كم جرماً أشفقت من	لمسك منه أصبعك

فـكيف بالنـار التى من كل وجـه تلسعك
يـراك ذو العـرش إذا نـاديتـه ويسمعك
فثق بـه ولا يـكن لغـيره تضرعـك

* * *

وما كان الشاعر مظلم النفس فأحياناً يتجول فى مراتع اللهو ، وقد يكون هذا تنفيساً ، أو محاولة لنسيان الصدمة التى طوحته عن بلده صقلية ، أو بدافع من روحه الشاعرية ويسير بنا شوطاً وهو يصف حالات الصفو والإمتاع والانسجام مع مجلس اللهو ، ويدعونا إلى أن نعب من أطايب الحياة والمرح ، ولكنه فى القصيدة نفسها لا يلبث أن يعود إلى أسلوب الموعظة وتتغلب عليه روح الحذر .

وكأنه فى آخر القصيدة يعتذر بأنه مجرد شاعر ، وليس من أهل الصبابة والمجون . ونتساءل إزاء هذا لم كان هذا الاعتذار منه وهو الشاعر المتفنن الذى دل شعره على شغف بالحياة واستطابة لذائذها واهتباله الفرص عند مسارح اللهو ومطارح الصبابة ؟ ولكنها عودة بعد جولة وتلاف بعد سرحان .

هل لأنه كان فى جو وبيئة يخاف أن تحسب عليه سقطاته ؟ أولأن الغربة لاحت له بآلامها؟ أولتقدم العمر أثر فى ذلك ؟ !

على أية حالة من أوصاف ابن حمديس لهذا المجلس :

حبـذا فتيان صدق عرسوا بعذارى من سلافات الخمور
عربد الصحو عليهم بالأسى فاتقاه السكر عنهم بالسرور

عمروا ربع الصبا من قبل أن ... يتمشى فيه بالشيب وثور
إن للأعمار إعجـــازاً إذا ... بلغت لم تثن منهن صدور
يقتفون العيش من قافيـــة ... ذات عمر كثرت فيه الدهور
اطلع الساقى عشاء منهم ... أنجم الكاسات فى أيدى البدور

* * *

ولكن ها هو الشاعر ينتكس ويندم . . لماذا ؟ هل هو الشيب الذى يكره أن يخضبه ؟

عد بالأكواب عنى إن لى ... فى يد الآنس عنهن نفور
عمر الشيب الدجى فى لحيتى ... بنجوم طلع ليست تغور
لا نشور لشبابى بعـــدما ... مات من عمرى إلى يوم النشور
وخضاب الشيب لا أقبـــله ... إنه فى شعرى شاهد زور
فـــكأنى ذو غليل تتلظى ... لوعة منه إلى ماء الثغور
أصف الراح ولا أشربهـــا ... وهى بالشدو على الشرب تدور
كالذى يأمر بالـــكر ولا ... يصطلى نار الوغى حيث تفور
فسواء بين إخوان الصفا ... وذوى اللهو مغيبى والحضور
أنا من كسب ذنوبى وجـــل ... وإن استغفرت فالله غفور

* * *

ومن الأبيات التى يذكر فيها ابن حمديس الشيب والاعتبار بالدهر عندما بلغ الشاعر الخمسين من عمره :

حلت بيومى إذ رحلت عن الأمس
وسرت ولم أعمل جوادى ولا عنسى

مراحل دنيـــانا مراحلنـــا الـــتى
ترانا عليها تقطع العيش بالخمس

* * *

وابن حمديس شاعر نفسانى غواص لا يتناول مجرد المظهر والإطار الخارجى بل فى أعماق الحس والإدراك .

وتلمس فى شعره هذا سواء أكان شعر المرح واللهو ، ووصف الرقص والخمريات والغزل .

أم فى شعر البكاء وظلال الحيرة وانفعالات القلق .

فى هذا الجانب وفى ذلك اللون تلتقى مع شاعر نفسانى يتناول المضمون ، فلم يكن من شعراء الحواشى المطرزة والصور اللفظية المنمقة ، ولم يكن مجرد — وزّان — ومقفى تفعيلات يقتطع الأوزان ويتصنع التفاعيل .

وينطلق بك هامساً عبر القصيدة مؤثراً ، فهو من الذين رسموا للشعر العربى طريقاً سهلا وطوروا الصورة النفسية .

ولا نزعم — هنا — أن عبد الجبار بن حمديس فى كثرة تفجعاته وشكواه أنه كان مريض النفس ، سوداوى المزاج ، متشائم الجبلة .

لا نزعم أن شاعرنا فى أناته وحرقاته صنع هذا لأنه مضطرب

الأعصاب ، فليس من السهل أن نزعم هذا وأن نكون مع تلك الظاهرة التى تلمسها عند بعض الكتاب والنقاد فى العصر الحديث ، فعندما يتحدث بعضهم عن كبار الشعراء والكتاب القدامى ، فى غابر الأزمان ، نرى المتصيدين لفن دراسة التراجم يمسكون بسماعة الطبيب ويدخلون هؤلاء الأدباء والشعراء إلى معامل التحليل الطبى وتراهم يقدمون بدل تفحص النتاج « فحصاً » طبياً ويقدمون « تقارير » طبية ، أبو نواس مريض نفسانى. المتنبى مريض نفسانى . الحطيئة مريض .

وعلى هذا يزجون بابن حمديس فيرونه على هذا القياس الطبى ، وعلى ضوء تقاريرهم مريضاً وهذه الظاهرة .. زج الأدباء القدامى فى العيادات النفسية . . لا نستطيع أن نتقبلها على علاتها ، وأن نخضع لهذا « التشخيص » و « التحليل » . . و « التعليل » .

وإذا أخذنا بهذه الظاهرة الجديدة فى دنيا النقد والتحليل وسرنا على مناهجهم لأدخلنا كل الشعراء والفنانين وذوى الحساسية إلى « المصحات » النفسية وأخضعناهم قسراً وغصباً أمام الأطباء النفسيين أو غير النفسيين .

لا . . لم يكن ابن حمديس مريضاً نفسانياً . إنما كان حساساً مرهف الإحساس . قلقاً . وسبب هذا :

١ ــ أنه كان شاعراً مفطوراً ، وهل يكون الشاعر المفطور والفنان الموهوب غير حساس !

٢ – قضية بلده وانقضاض الروم على صقلية .

٣ – آلامه فى الأندلس ، ونكبة صاحبه فى إشبيلية .

هذه بلا شك عوامل أثرت فى شعره ، وطبعت مضامين القصائد بالصورة الحساسة المرهفة وقد دفعته إلى أسلوب الشكاية والتبرم والقلق الذى قد يبلغ فورانه إلى حد التوتر والحيرة، ولقد كانت حياة – ابن حمديس – فى المهجر صورة من الهزات ، وتفاعل الأحداث .

وعلى الرغم من هذا كله ، ليس من السهولة أن نزعم أن ابن حمديس كان مريضاً نفسانياً، إنما نستطيع أن نؤكد أنه كان شاعراً حساساً ، ولم يكن صاحب مزاج سوداوى من صرعى التشاؤم .

فى حياة ابن حمديس حب وشراب وارتشاف من مناهل الحياة ، إنما الظلال التى صور فيها التشاؤم كانت تعبيراً عن حالات من القلق وفترات ، أو هى نتيجة لإحداث هزته وفى هذا المجال قد يكون الشاعر ابن الرومى خاضعاً لعوامل نفسية طبيعية عميقة وتكوين مزاجى ، وهو مريض متشائم أو جنى عليه التشاؤم فى حياته الخاصة ، كما تدل على ذلك المرويات ونفثات التعابير ، والنوادر الشائعة عنه من حكايات وتصرفات دلت عليها معتقداته ونظرته السوداوية لكثير من الأشياء كان يراها ذات تأثير على حياته ، فطبعته بطابع السوداوى المتشائم .

ولكن هل كان عبد الجبار بن حمديس كذلك متشائماً

على هذا الشكل والمنوال ؟ !

لا . . نقولها مرة . . بل ونؤكدها مرات .

وهو أيضاً ليس معربداً « كأبى نواس » كما أنه ليس متشائماً « كابن الرومى » . ولم يكن ابن حمديس نافراً من الحياة وأطايبها « كأبى العلاء المعرى » ولا هو بصاحب الطموح الفردى والبحث عن المجد الفردى « كالمتنبى » ولا هو ربيب القصور والليالى المترفات كالشاعر « ابن المعتز » ولكنه شاعر محس بآلام وطنه شغلته مطالب بلده ومأساة جماهير شعبه . فكانت منتهى الأمل عنده هو الوطن وقضية الوطن . . تغنى بأمجاده . . وتغزل بجماله . . وبكى لجراحاته .

لم يكن ابن حمديس مضطرب الأعصاب مريض النفس . وإلا لعددنا كل شاعر من شعراء الإحساس من مضطربى الأعصاب ومرضى النفس .

ولا شك أن هناك فارقاً كبيراً بين حاسية الشاعر ورفاهية مشاعره ، وبين المرض النفسى واضطراب الأعصاب .

فرق بين المرض الذى يحتاج إلى « سماعة » وتشخيص الأطباء ، وبين القلق الذى يدفع صاحبه إلى الإنتاج ومواصلة الإبداع . . ذلك النتاج الذى فى حاجة إلى نقاد ومفكرين وذواقة لفن الملهمين .

لولا قلق الفنان لما أنتج .

ولولا الحيرة لما فكر مفكر . . ولا خط قلم . . ولا صور فنان .

تلك ظاهرة تكاد أن تكون من البديهيات يلمسها المترجمون والدارسون لأصحاب النتاج الفنى ونعنى هنا بالحيرة : حيرة الموهوب ، وقلق الفنان ، لا حيرة المرضى واضطراب المحتاجين للعلاج والطب النفسى .

* * *

وعندما يشكو الشاعر الآلام الممضة ويشيد ببصره نحو موطنه فهو فى تأوهاته ونفثاته قد نفّس عن خاطره وهون على نفسه من ناحية ، وأرضى عاطفة الشعر وموهبة الفن من ناحية أخرى .

فشكوى الفنان وآلامه تغذى آلهة الشعر .

ومدامع أهل المواهب الفنية يورق شجرة الفن .

فابن حمديس شاعر تألم ولكنه لم يسكت ، وفى السكوت مضض مضاعف . أو مضض غير منتج ولعله وجد سلواه ، وتخفيفاً لحدة آلامه فى الثناء على نفسه ، ولكنه غرور نراه من زاوية الإبداع الفنى ، غروراً محبباً .

ونلمس فى هذا — الاستعلاء — شيئاً مفيداً لأنه منتج أو قد يدفع إلى التصوير والإنتاج . وقد لا يعرف أمثال هؤلاء من الفنانين والشعراء فضيلة التواضع .

* * *

وابن حمديس قد تذوق العزلة ، وصور فى ثنايا أبياته لوناً من العزلة ، ولكنه فى حياته العامة لم يكن منعزلا على طول الخط ودائماً ، بل هو إنسان قد اندمج فى دنيا المجتمعات ومر بتجارب.

والذى يصاحب أمثال المعتمد بن عباد ويجالس الأدباء ويراسل الأصدقاء ويتابع قضية وطنه ويرنو إلى بلده ، والإنسان الذى يحب ويكره ، ويعربد ويعف ، ويلهو ويمرح . . لن يكون معتزلا الناس .

وأبو العلاء المعرى شاعر وفيلسوف ، تكون صادقاً عندما تطلق عليه لفظة شاعر أو فيلسوف معتزل ، فهو كما صور نفسه ، وأطلق على نفسه « رهين المحابس » .

ولكن هل ابن حمديس كان معتزلا حياة الناس . وهو الذى يسافر ويجوب الشواطئ ويقطع الفيافى . وينغمس فى الأسمار بين كأس ووتر .

قد يكون بن حمديس فى بعض الحالات الطارئة والأزمات الملمة عندما يصاب بفقد عزيز أو قريب أو هجران حبيب أو غدر المقادير ، قد يكون — هنا — يلجأ إلى العزلة فترة . أو قد يكون من زاوية أخرى فى لحظات « الاستوعاب الفنى » صاحب عزلة .

ولكنها عزلة الفنان عندما يهرب من الصخب والنفاق ، ليخلو بنفسه ويعتصر ذهنه هى عزلة « المخاض الفنى » إن صح

هذا التعبير ، عزلة الفنان فى مرسمه ، أو لحظات صوغ ألحانه ، أو عزلة راهب الفكر فى محراب التأمل .

ولكنها أيضاً — وفى الواقع — ليست مثل هذه الحالات عزلة بالمعنى الصحيح ، إذ هو يغترف من نهر الحياة الكبير ثم يعود ليتصل بالناس ويسير فى موكب عصره ، يلتقط الصور ثم قد يخلو لعملية « التحميض » أو « الصهر الفنى » .

إنه يختلط بالمجتمع ويحتك بصنوفه .

والمهم — هنا — بلا مقدمات وتعاريج .

كان ابن حمديس الشاعر فى ثنايا قصائده يشير إلى العزلة ، والغربة . وهو صادق عند الإشارة إلى الغربة . . لأنه عاش فى صقلية حوالى خمسة وعشرين عاماً ، وما تبقى من السبعين عاماً — أى حوالى خمسة وأربعين عاماً — أو يزيد ، عاشها بين الأندلس وتونس ومضارب الشمال الأفريقى .

ولكن ما هى حكاية العزلة !

ليست عزلة بالمعنى المعروف من العزلة والفرار من الناس ، والترهب والانقطاع عن حياة المجتمع ، بل كان ابن حمديس يعب من أطايب الحياة ، ووخزت أقدامه حصباء الطريق ، وعندما يتذكر موطن مراحه وصباه يهتف بالشكاة وينبعث الأنين من نفس تواقة ، وهنا يذكر العزلة والغربة .

صور تلاحقه فى كل الآونات .

ونجده فى إحدى مقطوعات حنينه ، ومعازف أناته ، يتذكر مواطن لياليه ، ويشير إلى ضياع بلده التى استولى عليها الروم ويأخذ فى سرد محاسن أهل بلده وتمجيد صفاتهم، ويظهر الاعتزاز بالموطن والتعلق بالديار والأهل ، ثم يصف شجاعة نفسه ويتحدى الزمن — وكأنه فى حلبة مبارزة — . .
فإن لم تسالم يا زمان فحارب .

فتحدى فى نشوة الغضب أو ثورته فهو يقول :

تدرعت صبرى جنة للنوائب ... فإن لم تسالم يا زمان فحارب
عجمت حصاة لا تلين لعاجم ... ورضت شموساً لايذل لراكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة ... إذا لم أنقب فى بلاد الأغارب
فطمت بها عن كل كأس ولذة ... وأنفقت كأس العمر فى غير واجب
يبيت رياش الغضب فى ثنى ساعدى ... معوضة من جيد غيداء كاعب
وما ضاجع الهندى إلا مُثلَّما ... مضاربه يوم الوغى فى الضرائب
وكنت وقدّى فى الصبامثل قدّه ... عهدت إليه أن منه مكاسبى
فإن تك لى فى المشرفى مآرب ... فكم فى عصاموسى له من مآرب

* * *

والشاعر وهو ابن الشاطئ المتحضر . وابن صقلية الواقعة فى أوربا ، والرجل الذى عاش فى إيطاليا وأسبانيا والأندلس وشواطئ تونس الخضراء ، عاش يجوس خلال الديار المترفة فى عصورها الزاهرة ومغانيها المترعة بجمال الطبيعة ، ولكنه — مع

هذا — يذكر فى ثنايا أبياته أمثال عبارات :

الرحل — النوى — ركوب القلاص — .

هل هذا فى أسلوبه الشعرى من أثر الثقافة المتداولة المحفوظة .

أو هذا أثر من التأثر برجال — النوى — والقلاص — والرحل — والهندى الصارم — والصمصامة .

كما تلحظ فى شعره ألواناً من المجاز والاستعارة والتراكيب المعهودة فى شعر الأسلاف ، ولاعجب فهو إنسان رقيق متحضر ليس فى ألفاظه يبوسة ولا تجد فى تعابيره غموضاً كثيراً .

ولكنك قد تجد ألفاظاً وتراكيب وأنواعاً من التعابير تنساب وتتسرب فى نظمه من تلك الأشكال التى كان يستعملها شعراء ما قبل عصره ، أو التى استعملها ما بعد عصره من شعراء . . . التقليد والمحاكاة .

وهى — على الجملة — ليست كثيرة فى مضامين ديوانه .

ويهمنا — فى هذه القطعة — حديث الشاعر عن نفسه وشكواه وهو بيت القصيد ، أو هو كل القصيد ، والمقصد هنا :

أتحسبنى أنسى وما زلت ذاكراً ... خيانة دهرى أو خيانة صاحبى
تغذى بأخلاقى صغيراً ولم تكن ... ضرائبه إلا خلاف ضرائبى
ويا رب نبت تعتريه مرارة ... وقد كان يسقى عذب ماء السحائب
علمت بتجريبى أموراً جهلتها ... وقد تجهل الأشياء قبل التجارب

ومن ظن أمواه الخضارم عذبة قضى بخلاف الظن عند المشارب
ركبت النوى فى رحل كل نجيبة تواصل أسبابى بقطع السباسب
ولما رأيت الناس يرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب

* * *

وشىء جدير بالملاحظة : التنوع والانتقال .

والمتأمل فى القصيدة العربية يلحظ التنوع والتنقل من طبع الشاعر العربى قديماً ، طبع الشعراء من أغوار القدم . قفزات ، ولفتات ، ورؤوس مواضيع . وازدحام الخواطر حتى تزدحم القصيدة الواحدة بألوان ومنوعات من الموضوعات . وهذا شىء يلحظه الدارسون للتراث الشعرى على مختلف عصور أدبنا العربى ، ولم يند منه شاعر من أصحاب طوال النفس أو قصار النفس ، سواء من المجيدين الأوائل . أو من المقلدين الأواخر .

وهنا ، إزاء هذه الأبيات لابن حمديس . وبعد هذه اللفتة إلى نفس الشاعر وحديثه عن خوالجه وركوبه الرحل النواجب وتواصل أسبابه بقطع الفيافى والسباسب . وعزلته كأنه راهب .

ماذا يريد أن يصور ؟ وأية نقلة ينقلنا إليها ؟ !

مدح نفسه .

ولا عجب مرة أخرى فألصق الناس بوادى الغرور هم الشعراء .

بعد هذا المطاف . كيف تنتهى القصيدة ؟!

ومن تجارب الشعراء يلحظ الدارسون أن من السهل البدء

فى القصيدة ، ولكن من الصعب التخلص والنهاية .

وذلك مرجعه لازدحام الخواطر ، وفوران القلق النفسى .
فترى هنا ابن حمديس بعد رحلته الصحراوية — وهو ابن الشاطئ وربيب الجزيرة ، البلد المتحضر — تراه يرنو إلى جراحات وطنه ويعرج على ذكر محاسن أهله وفضائل بلده :

ولى فى سماء الشرق مطلع كوكب جلا من طلوعى بين زهر الكواكب
متى تسمع الجوزاء فى الجو منطقى تصخ بعقالى لارتجال الغرائب
وكم لى به من صنو ود محافظ لذى العيب من أعدائه غير عائب
أخى ثقة لا دسّة الراح والصبا له من يدى الأيام غير سوالب

إنه يذكر وطنه فى « سماء » الشرق ومطلع « كوكب » .

إذاً « الجوزاء » فى الجو تسمع منطقه ، بل وتصيخ له فهو يرتجل الغرائب .

تسمع الكواكب أناشيده ، هل هذا مستمد من غرور المتنبي الذى زعم فى بيت من الشعر أنه إذا قال شعراً أسمع الدنيا وهز الكون :

وهذا الغرور من الشاعر ابن حمديس ، هذا السمو قد يكون سببه ودوافعه أزمة حادة من القلق .

وقد يكون منشؤه عدم انسجام فى بعض الحالات مع البيئة والناس الذين عاشرهم فى مهجره . فغضب الرجل وتذكر سوالف أيامه وحنّ لموطنه ، وهزته أشواق شاعر ، فرأى بمرآة الوفاء أن

أهله من ميدان — سما — وسمو — وعلو — .

ويتذكر أطاييب الحياة وصفو الليالى ، غريب يمجد وطنه ، شأن كل غريب يتألم من الناس فى غربته .

ولكن ما الداعى إلى ذكر الخمر ، وأنها معتقة أو غير معتقة . وكأن هذين البيتين المتعلقين بالخمر « بين قوسين » فى القصيدة ، وهل هما من باب « الإقحام فى الوصف » والاستطراد فى السرد ، من قبيل تداخل وتزاحم الخواطر والمواضيع .

أم ترى أن هناك أبياتاً ساقطة من القصيدة ، ففقدت عملية الربط ، وبدت عملية الاسترسال فى القصيدة كأن بها فجوة ؟

ما نظن أن هناك أبياتاً ساقطة من القصيدة بل هى من تزاحم الصور وزحمة الخيال وقلق الحس .

فتراه يصف الخمر ثم يعود بنا ثانية إلى الإشادة بوطنه . . بأرضه . . آهة عميقة فى زفرة حارة . لو كانت حرة لعاد إليها وارتاح من الغربة وآلامها ومن خصام الناس فى أرض الاغتراب :

إذا خاض منها الماء فى مضمر الحشا
بدا الدر منها بين طاف وراسب
ولو أن أرضى حـــرة لأتيتهـــا
بعـــزم يعـــد السير ضربة لازب
ولـــكن أرضى كيف لى بفـــكاكها
من الأسر فى أيدى العلوج الغواصب

أمثلها فى خـاطرى كل سـاعة
وأمرى لها قطر الدموع السواكب
أحن حنين النيب للوطن الـذى
مغـانى مغانيـه إليـه جواذبى
ومن يك أبقى قلبـه رسم مـنزل
تمـنى لـه بالجسم أوبـه آئب

* * *

وكما ترى كان الشاعر فى القصيدة يطرق موضوعات عدة . ويصف بريشته الشاعرية أشياء كثيرة يضمنها إطاراً واحداً. وهذا مرجعه المنهج الشعرى لدى المتقدمين .

ألم يمدح «كعب بن زهير» الرسول مبتدئاً بالتغزل فى قصيدته : « بانت سعاد » وهناك سبب آخر ، انسياب وتدفق الخواطر عند ابن حمديس . وهو صادق فى شعوره حساس فى إدراكه.

وطنية وعروبة

وعبد الجبار بن حمديس شاعر تغنى بالعروبة .

وهتف لأمجاد قومه ، وصور الحنين لوطنه فى كل قصيدة ومناسبة .

فى قصائد الغزل . ومطولات المديح . حتى فى لحظات البكاء والرثاء . فهو مرهف الحس دقيق المشاعر .

عاش الشاعر المهاجر مشبوب العاطفة ، وأكثر شعره فى الديوان عروبة صادقة وأنات خالصة .

عندما هاجر من وطنه صقلية كان فى حوالى الرابعة والعشرين . . شاب يمتلئ حيوية ويتدفق شاعرية . ويترسم أمام عينيه معالم وطنه الجريح . وتشبع خياله بمأساة قومه .

فهو يتذكر وتؤرقه الذكريات . ولا تفارق مخيلته مواطن آبائه وأجداده . ومراح طفولته وصباه . ومطلع شبابه . ومسارح ملاهيه وصبواته .

وتكون هذه الذكريات ذخيرة تمده بشحنة من الوقدات الفنية والقبسات التى يستمد منها الظلال فى تصوير حنانه .

وهو شاعر أصدق ما يكون الوفاء .

طاف بالأندلس وحط به المقام فى تونس ، وكان آخر المطاف صفاقس والمهدية ، ثم أخيراً ميورقة .

قرابة نصف قرن، وهو لا يغيض معينه من الحنين والأنين ، وجرابه لا ينتهى من التصوير الفنى فى إطارات مشبوبة بلهب الوطنية ، وتصوير مشاعر العروبة فى صدق النبرة وروعة التصوير . وكان ينسج آمال قومه، ويهيب بالرجوع والعودة إلى وطنه الذى اغتصبه الروم .

وابن حمديس شاعر هادف ، إن أردنا من الهدف الإيمان بفكرة ، والعيش لقضية ، ومنهاج مرسوم .

وابن حمديس ، شاعر صاحب رسالة إن أردنا من الرسالة الأدبية تحمل المسئولية .

وهو شاعر صاحب مضمون إن أردنا من المضامين فكرة وغاية .

وقد يقال إنه شاعر غرق فى المدائح .

ولكن هناك مبررات ودوافع ، لأن العصر الذى عاش فيه ابن حمديس لا يستطيع الشعراء فيه أن يتخلصوا من المديح .

وهو شاعر مد يده لتلقى الجوائز ، وتناولت أصابعه دنانير المعتمد بن عباد ، وبنى تميم لأن ذلك كان طابع تلك العصور ، ولكن مع الإغراق فى المديح ، ومع مد يده للجوائز وتناول العطايا ، هناك شىء يجب أن يلاحظ : فالشاعر لم ينس ولم

يهمل قضية وطنه حتى فى قصائد المديح ، حتى فى مقطوعات الجوائز ، حتى فى سهرات الأسمار ووصف الغانيات والتفنن بالجمال ، ووصف الراقصات والأوانس .

شعراء كثيرون هاجروا واضطرتهم الظروف إلى مغادرة أوطانهم ، إما بدافع الطموح وطلباً للمجد ، وعن طيب خاطر من تلقاء أنفسهم ، أو كانت هجرة بعضهم بدافع الحاجة وتحت وطأة ظروف خاصة بحثاً عن لقمة العيش ، أو نزوحاً عن الوطن طمعاً فى الشهرة والالتصاق بحاكم شهير أو وزير خطير .

أو هى غربة من أجل تلقى العلم وتصيد الرواية .

وهناك أنواع من الهجرات والتغرب ، كانت هروباً من الأحكام القاسية والظروف السياسية، أو بدافع هجوم غزاة على بلادهم .

كثير من أهل الأدب والعلم وفن الشعر هاجروا واغتربوا . وقد امتلأت صفحات الأدب العربى فى مجال الشعر والنثر بصور من ذكريات الأدباء المهاجرين والشعراء المغتربين . وهى مادة خصبة للدارسين ومدعاة للتأمل والمقارنة .

شعراء تغربوا عن بلادهم وساحوا . من شعراء جزيرة صقلية إلى الأندلس وطرابلس والمغرب وبلاد الشام والعراق ومصر وبلاد الجزيرة وما وراء النهر .

ومن شعراء الهجرة نذكر «الودانى» صاحب الأبيات الشهيرة :

من يشترى منى النهار بليــــلة | لا فرق بين نجومها وصحابى
دارت على فلك الزمان ونحن قد | درنا على فلك من الآداب
وأتى الصباح ولا أتى وكأنـــه | شيب أطل على سواد شبابى

* * *

وهناك كثير من الشعراء قد تبلوروا فى البيئة الجديدة ، وانسجموا فى المجتمع الذى هاجروا إليه حتى إنهم غدوا من تاريخه الأدبى ويعدون من أعلامه ، وعلى مر السنين وكر الليالى نسوا أوطانهم الأولى – أو على الأقل – خفت حدة تلهفهم وأشواقهم.

ولكن الظاهرة الواضحة فى شعر ابن حمديس تدفق ذكرياته وفوران شاعره نحو صقلية طوال إقامته فى مهجره ، سواء بالأندلس أو إفريقية – مع أن فى مسرح الأدب العربى عديداً من الشعراء المهاجرين من صقلية اندمجوا فى الوطن الجديد .

وهذا الأديب أبو العرب مصعب المعروف بابن الفرات ، خرج من صقلية لما تغلب عليها الروم عام ٤٦٤ هـ ١٠٧١ م وقصد المعتمد – أى قبل خروج وهجرة ابن حمديس بحوالى سبع سنوات . ولكن ابن الفرات الصقلى هذا يرسم لنا صورة أخرى تختلف عما رسمه ابن حمديس يقول ابن الفرات الصقلى :

إلى ما اتباعى للأمانى الكواذب | وهذا طريق المجد بادى المذاهب
أهم ولى عزمان عزم مشرق | وآخر يثنى همتى للمغارب
ولابد لى أن أسأل العيش حاجة | تشق على أخفافها والغوارب
علىّ لآمالى اضطراب مؤمل | ولكن على الأقدار نجح المطالب

ويا وطني إن بنت عني فإنني سأوطن أكوار العتاق النجائب
وإن كان أصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين أقاربي

فهل هذه نظرية إنسانية من هذا الأديب الصقلي أبي العرب. عند ما يرى كل العالمين أقاربي . .

وهل تلك نظرية ضيقة محدودة المعالم من الشاعر عبد الجبار ابن حمديس . لا . . . ليس هذا نظرة إنسانية من الأول .

ولا هي بالنظرة المحدودة الضيقة من الثاني .

إنما هي حرارة الشوق للوطن الصقلي ظلت قوية لا تفتر عند ابن حمديس بينما اللوعة أخذت تخف حدتها عند الشاعر أبي العرب الصقلي فساوى بين أرض وأرض وموطن وموطن ويتساءل : ألا ما اتباعي للأماني الكواذب . . ويرى كل العالمين أقاربه .

بينما الشاعر ابن حمديس في إحدى قصائده يتمنى في سبحة من خيال. وفي لهفة من شطحات الأماني لو أن الهلال غدا زورقاً وعبر به البحر إلى موطنه — صقلية — .

والشاعر في إحدى جلساته على شاطئ البحر الأبيض يرنو ببصره إلى مراتع وطنه وعلى مر الأيام لم ينس الشاعر فقد شغل الغير من الأدباء والشعراء وأهل العلم المهاجرين بينما هو يهتف بدوافع من الشوق والحنين :

وراءك يا بحر لي جنــة لبست النعيم بها لا الشقاء

إذا أنا طالعت منها صباحاً تعرضت من دونه لى مساء
فلو أننى كنت أعطى المنى إذا منع البحر منها اللقاء
ركبت الهلال لها زورقاً إلى أن أعانق منها ذكاء

وهو يعلم أن ذلك مجرد أمنية ، مجرد حلم ينفس به عن خاطره — ومنع البحر منها اللقاء — لعلها إشارة إلى أساطيل الأعداء التى كانت تحاصر جزيرة صقلية ولا زال شوق الشاعر متزايداً متصاعداً حتى غدا الشوق والحنين للوطن لدى الشاعر مضرب المثل ومنبعاً من التمثيل والتشبيه،وانظره هنا بماذا يشبه الشاعر عند ما يريد التصوير والتشبيه فى بيت من أبيات التغزل :

لقد حنت إلى مثواك نفسى كمرزاة إلى وطن تتوق

* * *

حتى فى الغزل وأساليب الصبابة يجد الشاعر مناط التشبيه فى هذه الروعة وتلك اللفتة :

يقر قرار السر عندى كأنه غريب ديار قال فى وطنى حسبى

* * *

ولقد تملك عليه الحنين للوطن أقطار نفسه وظل شغله الشاغل حتى أصبح الحنين للوطن عند الشاعر موضع التشبيه والمنبع الذى يستمد منه ألوان التصاوير للوحاته الفنية فى أكثر

من قصيدة ؛ فهو عند ما يشاهد جميلا تهفو إليه النفوس .. بما يراه فى التشبيه . . . إنه يقول :

رشأ أحن إلى هواه كأنــه وطن ولدت بأرضه ونشيت

* * *

وابن حمديس يحذر من الاغتراب فقد ذاق مرارته وجرب آلامه الممضة فريع منه . .

إياك أن تجرب الغربة — الصق بأرضك . .

وليست هذه الصرخة من الشاعر لأنه من دعاة الخمول، بل كان هذا منه بدافع الاعتزاز بوطنه وأثر من تأثير الصدمة :

وإياك يوماً أن تجرب غربة فلن يستجيز العقل تجربة السم

* * *

وأيضاً يلمح الشاعر فى الرشأ والوجه الصبوح ما يذكره بالوطن ، وعند ما يصف ابن حمديس الذى يتذوق الجمال ويستطيبه ، إحدى الغادات فى البلاد الأندلسية يتذكر غربته حتى فى هذه اللحظة :

كم غريب حنت إليه غريبة وكئيب شجاه شجو كئيبه
سلطت كربة التنائى علينا فعسى فرحة التدانى قريبه
فمتى نلتقى فتصبح منــا كل نفس لكل نفس طبيبه

* * *

وتكثر فى قصائد ابن حمديس كلمات — غربة — واغتراب — وغريب — فهو يقول :

أنا من صاح به يوم النوى   عن معانيه غراب فاغترب

* * *

وفى إحدى المرثيات التى نظمها بعد أربعين عاماً من هجرته يقول :

أرانى غريباً قد فقدت غريبة   كلانا مشوق للمواطن والأهل

* * *

ويوحى إليه قبر عمته وقد وسدها التراب فى بلدة «صفاقس» بتونس قصيدة فيها ظلال الاغتراب :

غريبة قبر عن قبور بأرضها   مجاورة فى خطة الطعن والضرب

* * *

وابن حمديس يذكر ألم الغربة ومرارة الفرقة وحرقة البعاد عن الوطن فى كل مناسبة وهو القائل :

أنا — يا ابن أختى — لا أزال أخا أسى
حتى أوسد فى الضريح وسادى
إنى امرؤ — مما ظرمت مهمهم
بفراق أهلى وانتزاح بلادى
أردى الغريب بعلة ترتاده   بالكرب وهى غربة الرواد

والشاعر كانت هجرته فى أرض عربية واغترابه وهجرته فى بلاد إسلامية إنه — فى الواقع — بين أبناء عمومته وملته ، ولكن — مع هذا — ترك لنا ابن حمديس فى أناته حنيناً قد لا تجده مثله لدى المتشوقين المغتربين ، وبرغم سخاء العيش والترحاب به لدى الأمراء وبرغم مجالس السمر وجمال الطبيعة الخلابة فى ربوع الأندلس والشاطئ الإفريقى الذى لا يقل روعة وجمالا عن صقلية وسرقوسة وقلورية . برغم ليالى إشبيلية وبجاية وميورقة وقرطبة والمهدية .

إنه مشدود إلى بلده يلهج به ويحن إليه .

ولا شك أن الحنين إلى الوطن طبيعة فى الإنسان ، وشىء مغروز مفطور عليه الإنسان العادى ، فما بالك بشاعر حساس ، وفنان قلق النفس مرهف الأحاسيس .

وهنا نستمع لابن حمديس الذى ذاق الغربة والهجرة يحذر الناس من الهجرة عن الأوطان والابتعاد عن أراضيهم .

ويرى إن عدم هؤلاء هواء بلادهم فإن أمانيهم فى الأرض تضيع وتتبعثر ، وعزهم يفضى إلى الذل والهوان . وبلاد الناس ليست بلادهم والخالة مهما كانت حنونة مكرامة لا تغنى فى حنانها ودفء صدرها عن صدر وحنان الأم .

وإنها لمقارنة فيها لفتة فنية بين الأم الوطن والأم التى ترضع بثديها وتغذى الأبناء بفيض حنانها . ومن تصويرات تحذيره

من الاغتراب عناء ما يخاطب مواطنيه :

ولله أرضى إن عدمت هواءها فأهواؤكم فى الأرض منشورة النظم
وعزكم يقضى إلى الذل والنوى من البين ترمى الشمل منكم بما ترمى
فإن بلاد الناس ليست بلادكم
ولا جارها والحلم كالجار والحكم
أخلى الذى حدبى بجى وصلته
لديه كما نيط الرواد من الوسم
تقيد من القطر العزيز بموطن ومت عند ربع من ربوعك أو رسم
وإياك يوماً أن تجرب غربة
فهل يستجيز العقل تجربة السم

* * *

ومن صور الحنين إلى أرضه التى بها مفاصل أهله وقد تقدم به العمر :

أحن إلى أرضى التى فى ترابها مفاصل من أهلى بلين وأعظم
كما حن فى قيد الدجى بمظلة إلى وطن عود من الشوق يرزم

* * *

وتلمس صورة الشوق للوطن وتصوير الشاعر حلاوة الرجوع وروعة اللقاء ، وكان هذا ضمن قصيدة امتدح بها ابن حمديس الأمير « على بن يحيى » وأشار فيها إلى إرجاع الأمير

أهل صفاقس بتونس إلى أوطانهم ، وأوبتهم إلى ديارهم . وقد حركت سواكن نفسه هذه الصورة :

يا يوم ردّهم إلى أوطانهم　　لرددت أرواحاً إلى أبدان
نزلت بك الأرواح فى عرصاتهم　　وبها يكون ترحل الأحزان
فلـذ القلوب إلى القلوب تراجعت　　فى ملتقى الآباء بالولدان
والأمهات على البنات عواطف　　والمشفقات على اللدات حوان
سر القرابة بالقرابة منهم　　وتآنس الجيران بالجيران
وتزاور الأحباب بعد قطيعة　　دخلت بذكر الود فى النسيان
فى كل بيت نعمة ومسرة　　شربوا سلافتها بلا كيزان

* * *

ثم بعد أن يفيض فى وصف أثر هذا الموقف فى نفسه يعرج على وصف حالته الأدبية ومدى مقدرته الشاعرية .

وإنه شاعر يقول فيجيد القول ، ويبنى من القوافى ، ويصوغ من ترانيم الأناشيد ما لا يمحوه الزمان ، ولا تستطيع معاول الدهر هدمه .

وهل هذا الشكران لنفسه والالتفات إلى بواطن حسه من دوافع الاستعلاء ، أم هو من قبيل رد الفعل لفقدان الأهل والأحباب والوطن .

أم هو من شيمة الشعراء تراهم يعكفون على نسج برود المدح ، وعند ما يصنعون الثوب لأنفسهم يزيدون فى الزركشة والبرقشة ويوسعون الثوب ويتفننون فى صنعه وإجادته .

وعلى كل حال – هنا – نلمس صورة نفسية لابن حمديس فيها عاطفة جياشة ، وإحساس فوار فهو فنان يبنى القريض . ويراه شامخاً خالداً فى وجه عوامل الدهر وتقلباته . وهو يصنع الثناء ويحوك منه دقائق الأوصاف ويجمع نوّار الربيع وأزاهيره .

والشعر . . هو الفن الساحر كما يراه ابن حمديس ويصفه بأنه شيء يسرى فى النفس سريان الخمر . . سريان الألحان . . إنه ذلك الساحر الخفى . .

وهو شاعر يسابق الريح فى حلبة المجد ولكنه فارس لا تستطيع اللحاق به ، ولا يقدر أحد على إمساك عناقه . فهو فارس من فرسان الشعر ، وسباق فى ميدان القول .

لقد كبر فى السن وتقدم به العمر ، ولكنه لم يشخ إحساساً ، وبرغم كبر سنه فإن للفارس جولات وطعنات ، أو قل تجليات فى حلبة البديع أو قل الإبداع ، له جولات فلا ينبو سنانه :

إنى امرؤ أبنى القريض ولا أرى
نومنا يحاول هدم ما أنا بانى
صنع بتحبير الثناء وحـوكـه فكأنما صنعاء تحت لسانى
وأفيد نوّار الربيع تضوعاً متنسماً بدقائق الأذهان

والشعر يسرى فى النفوس ولا كما
يسرى مع الصهباء والألحان

ولقد شأوت الريح فيه مسابقاً — من بعدما أمسكت فضل عناني
وطعنت فى سن الكبير وما نبا — عن طعن شاكلة البديع سنانى

* * *

وكان اتصال الشاعر ابن حمديس بالمعتمد بإشبيلية حوالى عام إحدى وسبعين وأربعمائة (٤٧١) ه بعد أن كان روجر قد توغل فى صقلية .

وظل الشاعر فى هذه الحقبة يرسل قصائده الحماسية يحاول أن يبث الشجاعة فى بنى وطنه ويدفعهم على الصعود ومواصلة النضال من أجل رد قوات الروم المغيرة ، من أجل تخليص الوطن الصقلى من غارات الشواطئ .

ويبدو أن الشاعر قد لجأ إلى ساحات الأمراء والحكام من بيت بنى عباد وبيت بنى تميم وغيرهم لأجل أن يجد منقذاً . وتحريكاً للهمم ويريد أن يلفت أنظار هؤلاء الحكام والأمراء فى الأندلس وتونس إلى محنة الوطن الصقلى ومأساة العرب على الشاطئ المهدد إنه يصرخ فى صدق مصوراً الخطر الزاحف من أوربا على العالم الإسلامى ، فهو يحذر وينذر ويلهب ولتسمع إلى إحدى صرخاته المدوّية :

بنى الثغر لستم فى الوغى من بنى أمى
إذا لم أصل بالعرب منكم على العجم
دعوا النوم إنى خائف أن تدوسكم
دواه وأنتم فى الأمانى مع الحلم

وردوا وجوه الخيــل نحو كريهة
مصرحة فى الردم بالثكل واليتم

* * *

والشاعر يمجد بنى قومه ويذكر فضائل وشمائل مواطنيه :

ولله أرضى التى لم تزل كناس الظباء وغيل الأسود
فمن شادن بابلى الجفــون نفور الوصال أنيس الصدود
ومن قسور شائك البرثنى له لبدة صردت من حديد
يصول بمثل لسان الشواظ فيوغله فى نجيع الوريد
زبانيــة خلقوا للحروب يشبون نيرانها بالوقود

* * *

ومن وطنيات ابن حمديس ما صوره عن الوضع التى آلت إليه صقلية فى عهد استيلاء الروم :

أعاذل دعنى أطلق العبرة التى
عدمت لها من أجمل الصبر حابسا
لقدرت أرضى أن تعود لقومها
فساءت ظنونى ثم أصبحت يائسا
وعزيت فيها . النفس لما رأيتها
يكابد داء قاتل السم ناحسا
وكيف وقد سيمت هوانا وصيرت
مساجدها فى أيدى النصارى كنائسا

إذا شاءت الرهبان بالضرب أنطقت
مع الصبح والإمساء فيها النواقسا
صقلية كاد الزمان بلادها وكانت على أهل الزمان محارسا
فكم أعين بالخوف أمست سواهرا
وكانت بطيب الأمن منهم نواعسا
أرى بلدى قد سامه الروم ذلة
وكان بقومى عزة متقاعسا
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه فأضحى لذاك الخوف منهن لابسا
عدمت أسوداً منهم عربيــة ترى بين أيديها العلوج فرائسا

* * *

ثم يمتد بابن حمديس النفس ويسترسل الشاعر فى وصف الحالة وإبراز الصورة قائلا عن وصف « قلورية » كلابرية — جنوب إيطاليا :

أما ملئت عراراً قلورية بهم وأرادوا بطارقة بها وأشاوسا
هم فتحوا أغلالها بسيوفهم وهم تركوا الأنوار فيها حنادسا
وساقوا بأيدى السبي بيضاً حواسرا
تخال عليهن الشعور برانسا
يخوضون بحراً كل حين إليهم ببحر يكون الموج فيه فوارسا
بحربية ترمى بمحرق نفطها فيخشى سعود الموت فيها المعاطسا
تراهن فى حمر اللبود وصفرها كمثل نبات الزنج صيغت عرائسا
والأبيات الأخيرة فى وصف الأساطيل الحربية .

من طرائف الوصف

من طرائف ما صوره الشاعر ابن حمديس كراهية الغانيات، ونفور ربات الجمال من الكهول .

ورأى الشاعر أن من العار أن يتهالك الشيخ المتقدم فى السن على صغار السن وزهور الفتيات .

أترى أن شاعرنا كان يستهجن أن يتزوج الكهول بالفتيات الصغار ؟ تلك المشكلة التى تعانى منها بعض الأوساط الرجعية :

أرى الشيخ يكره فى نفسه مشيباً أفاض عليه النهارا
وضعفا يهد قوى جسمه وينقل من خطاه قصارا
فكيف يجشمهـا طفلة يطير بها القلب عنه قصارا
وعار على الشيخ تقريبـه فتاة ترى قربه منها عارا
وقد جبل الغانيات الصغار على بغضهن الشيوخ الكبارا

* * *

ومن تصوير ابن حمديس لكبره وعدم قدرته على النهوض بعد أن كان حيوى الشباب لا يشعر بتعب المشى :

أسلمنى الدهـر للرزايـا وغير الحادثات نقشى
وكنت أمشى ولست أعيا فصرت أعيا ولست أمشى
كأننى إذ كبرت نسر يطعمه فرخه بعش

* * *

وفى ديوان ابن حمديس جاءت هذه الكلمة :

« أخبرنى محمد بن عبد الجبار بن حمديس وقد سألته عن التمثيل بالنسر فقال :

ذكر بعض العلماء بأسرار الحيوان ، أنه ليس فى الطير ما يطعمه ولده إلا النسر وذلك إذا ضعف عن الطيران للتكسب» .

وما دمنا بصدد هذه الأبيات لابن حمديس ، فمن الجدير بالملاحظة أن كتب الأدب تثبت هذه الأبيات إلى أديب آخر .

أراد « ابن زرقون » من علماء إشبيلية أن ينهض من مجلسه ، فلم يستطع لكبر فى ركبتيه وسنين تثاقلت على كاهله فتأثر واعتمد حتى أعانه الغير على النهوض فلما استوى ناهضاً أنشد :

أصبحت عند الحسان زيفا وغير الحادثات نقشى
فكنت أمشى ولست أعيا فصرت أعيا ولست أمشى

* * *

وإذا أدركنا أن « ابن زرقون » توفى بإشبيلية فى القرن السادس الهجرى عام ٥٨٠ هـ يتضح لنا أن « ابن زرقون » قد استشهد بأبيات ابن حمديس الصقلى ، ولم يكن « ابن زرقون » ناظماً لهذه الأبيات ، إذ أن ابن حمديس كان أسبق . وقد سارت أبياته فى مجالس الأدباء واستشهد بها « ابن زرقون » . وكلمة « أنشد » التى أوردها المقرى فى نفح الطيب قد تدل على الاستشهاد لا على النظم وإنتاج هذه الأبيات إذاً من الخطأ أن تنسب الأبيات « لابن زرقون » بل هى من منظومات « ابن حمديس » .

سرقوسة بلدة الشاعر

كانت مدارج طفولة ابن حمديس فى بلدة سرقوسة .

وهى فرضة بحر تقع شرقى جزيرة صقلية وتبعد حوالى ثلاثين ميلا إلى جنوب الجنوب الشرقى وحوالى واحد وثمانين ميلا من « قطانية » .

وقد أشار إليها ابن حمديس كثيراً فى قصائده وصور لياليها والمعارك الحربية التى دارت على شاطئها .

وقال عبد المنعم الحميرى فى كتابه الجغرافى « الروض المعطار فى خبر الأقطار » عند ذكر « سرقوسة » — وكان هذا الكتاب موجوداً قبل القرن الثامن الهجرى —: « هى مدينة بينها وبين جزيرة صقلية مجاز لطيف ، وهى كبيرة عليها ثلاثة أسوار وهى من مشاهير المدن وأعيان البلاد ، يقصدها كل حاضر وباد ، من جميع الأقطار والبحر محدق بها من جميع جهاتها ، والدخول إليها والخروج عنها على باب واحد شمالها . ولها مرسيان ، وليس مثلها فى جميع البلدان ، أحدها أكبر من الآخر وبها فوارة "النبودى" تنبع من جرف على حاشية البحر ، وهى عجيبة الأمر . وبها ما بأكثر المدن من الأسواق ذوات "السماطان" والخانات والديار والحمامات والمبانى الرائقة والأفنية الواسعة ولها إقليم كبير وضياع ومنازل حصينة زكية

المزارع توسق فيها السفن بالطعام .

وفى سرقوسة مات أسد بن الفرات ، كان وجهه زيادة الله الأغلبي أمير القيروان غازيًا على صقلية . فسار إليها مقلعاً من سوسة ودخلها فى عشرة آلاف فارس وكان أميراً وقاضياً فقاتل أهلها وفتح فيها بلاداً وتوفى بها .

وافتتحت سرقوسة سنة أربعة وستين ومائتين (٢٦٤) ﻫ وكان جعفر بن محمد التميمى أخرج أبا العباس أحمد بن عبد الله بن يعقوب بالصائفة فهزم أهل سرقوسة وقتل منهم مقتلة عظيمة . وحاصرها براً وبحراً وفتحها بعد تسعة أشهر من نزوله عليها فى رمضان من العام المؤرخ ، وأصاب فيها من المغانم ما لم يكن يصاب مثله فى مدينة من الشرك .

وسرقوسة مدينة كبيرة ، عليها ثلاثة أسوار . ولها مرسى يعرف بالمينا الصغير ، وبينه وبين المرسى المينا الكبير حفير ، وعلى الحفير قنطرة إلى المدينة . والمينا الكبير مشتى للسفن والفوارة على المرسى وعليها المسجد » ا ﻫ .

وسرقوسة بلدة الشاعر ابن حمديس قدنسب إليها كثير من أهل العلم والأدب منهم أبو عمر عثمان بن على السرقوسى النحوى وقد قال عنه السلفى :

« كان من العلم بمكان نحواً ولغة وله تواليف فى القراءات والنحو والعروض » .

وكانت هجرة هذا الأديب السرقوسى إلى القاهرة ، وكانت

له حلقة للتدريس والإفتاء بجامع عمرو بن العاص .

وإلى سرقوسة ينسب الفقيه « أبو القاسم عبد الرحمن أبو بكر السرقوسى . وقد أشار العماد فى كتابه « الجزيرة » إلى عدد وافر من علماء وأدباء سرقوسة .

وكانت من قديم عاصمة الجزيرة . وعندما استولى المسلمون على أنحاء الجزيرة انتقلت عاصمة الروم إلى مدينة « قصريانة » حتى استطاع المسلمون أن يستولوا على سائر الجزيرة .

كان فتح سرقوسة فى ١٤ رمضان ٢٦٤هـ. شهر مايو ٨٧٧م .

* * *

ويذكر ابن حمديس « سرقوسة » فى شعره ويتحسر على غياب أبطالها وذهاب فرسانها واحتلال الروم لها فيقول :

ومن عجب أن الشياطين صيرت
بروج النجوم المحرقات مجالسا
وقد أصبحت سرقوسة دار منعة
يزورون بالديرين فيها النواوسا
مشوا فى بلاد أهلها تحت أرضها
وما مارسوا منهم أبيًّا ممارسا
ولو شققت تلك القبور لأنهضت
إليها من الأجداث أسداً عوابسا
ولكن رأيت الغيل إن غاب ليثه
تبختر فى أرجائه الذئب مائسا

ملوك الطوائف ـ بنو عباد ـ المعتمد

وفد الشاعر ابن حمديس من سرقوسة بصقلية إلى بلاط المعتمد بن عباد أحد ملوك الطوائف بالأندلس .

فمن هم ملوك الطوائف ، وما كان من أمر ابن عباد ؟

لقد خلع الأجناد آخر خلفاء بنى أمية واهتز عرش الأمويين بالأندلس .

كان المخلوع هشام بن محمد الملقب بالمعتمد ـ كان ذلك عام ٤٢٢ هـ .

وهنا قام « الطوائف » مقام الخلائف .

وتشهد الأندلس فى هذه الحقب إمارات وممالك مقسمة ، ورؤساء من البربر والعرب والموالى ، وتوزعت رقعة الأندلس أقساماً وألواناً .

وأخذ البعض يهجم على البعض وبرزت دولة الطوائف .

ومع ذلك خضعوا بدفع الجزية للإسبان لئلا يهاجموهم .

مضت على ذلك حقبة من الزمن حتى دخل الأندلس السلطان « يوسف بن تاشفين » من مراكش وعمل على خلع ملوك الطوائف ، وأزال دولتهم .

وقد شاهد تاريخ الأندلس ألواناً وأشكالا من ملوك الطوائف من هؤلاء :

بنو عباد : ملوك أشبيلية وغرب الأندلس .
بنو جهور : فى قرطبة
بنو الأفطس : ملوك بقليوس
بنو ذى النون : ملوك طليطلة
باديس بن حسون : ملك غرناطة والبيرة
ابن أبى عامر : صاحب شرق الأندلس
ابن صمادح : كان مستقلا بالمرية

وهذا الشاعر الذى امتلأ ألماً لهذه الحالة يصور هذه الأشتات

مما يزهدنى فى أرض أندلس تقليب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

* * *

وهذا شاعر آخر يصور تقلص « الطوائف » وما وصلت إليه الحالة عند ما أخذ الإسبان طليطلة من ذى النون .

إنه الشاعر « ابن العسال » يصرخ :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس
فما المقام بها إلا من الغلط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات فى سفط

وبنو عباد الذين نبغ منهم الشاعر الملك « المعتمد بن عباد » كان أول دخولهم إلى الأندلس من بلاد الشرق .

فقد كان « نعيم » و « عطاف » قدما إلى ربوع الأندلس

من المشرق ، ويرجع أصلهما إلى بلدة « العريش » تلك القرية النائية بين حدود مصر وفلسطين .

وأقام الأخوان « عطاف » و « نعيم » بقرية قرب « تومين » من إقليم « طشانة » وهى من « إشبيلية » .

وتناسل حتى ظهر من هذه السلالة محمد بن إسماعيل القاضى وولى قضاء « إشبيلية » وكان صاحب كياسة وسياسة .

بينما كان الحاكم على « قرطبة » يحيى بن على حمود الحسنى المنعوت بالمستعلى ، مذموم السيرة .

وعند ما توجه هذا إلى « إشبيلية » بقصد حصارها هرع أهل البلد إلى القاضى وقالوا له :

« أما ترى ما حل بنا من هذا الظالم وما أفسد من أحوال الناس ، قم بنا نخرج إليه ونملكك ونجعل الأمر إليك » .

وهزم يحيى بن حمود وقتل . وهنا ظهر نجم القاضى . وملك « قرطبة » وغيرها من البلاد ، وكان رجل علم وأدب وتوفى عام ٤٣٣ هـ وهو فى ذروة مجده وقام بعده ولده المعتضد بالله أبو عمرو عباد .

وقال صاحب الذخيرة :

« ثم أفضى الأمر إلى عباد قطب رحى الفتنة . ومنتهى غاية المحنة ناهيك من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد . ولا يسلم منه قريب ولا بعيد »

وبقى فى الملك حتى أصابته الذبحة عام ٤٦١ هـ .

وهنا يلمع اسم « المعتمد بن عباد » .

ويقول عنه « ابن القطاع » :

« أندى ملوك الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم ثماداً ، وأرفعهم عماداً ، ولذلك كانت حضرته ملتقى الرجال ، وموسم الشعراء ، وقبلة الآمال ، ومألف الفضلاء .

حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه ، وتشتمل عليه حاشية جنابه » .

ولقد صدق الكاتب « ابن القطاع » فقد كان من شعراء المعتمد .

الوزير بن عمار ، وابن اللبانة ، وأبو بكر الدانى .

كلهم من فحول الشعراء .

وفى عصر المعتمد بن عباد كان الشاعر ابن زيدون ٣٩٤ هـ ١٠٠٣ م .

وأبو بكر بن عمار الشلبي المتوفى ٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م

وأبو بكر بن اللبانة الدانى توفى ٥٠٧ هـ ١١١٣ م .

وأبو بكر عبد الله بن الحداد توفى ٤٨٠ هـ ١٠٨٧ م .

وأبو محمد عبد الجليل بن وهبون توفى ٤٨٠ هـ ١٠٨٧ م

وقد تنافس ملوك الطوائف فى جلب الشعراء إليهم وها هوذا أحد العلماء يصف هذه الظاهرة : « ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادى النواسم بين الرياض ، وتفتك فى أموالهم فتكة

البراض. حتى إن أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم فى إمداحه أنه حلف ألا يمدح أحداً منهم بقصيدة إلا بمائة دينار».

ولقد كثر الشعراء فى هذا العصر بالأندلس حتى نجد «القزوينى» يقول :

«أى فلاح يحرث بأثوار فى شلب يرتجل ما شئت من الأشعار بما شئت من المعانى» .

ولقد كانت سوق الشعر رائجة وهرع إلى رحاب المعتمد شاعرنا عبد الجبار بن حمديس وأبو العرب مصعب بن أبى الفرات الصقلى بعد أن أرسل له المعتمد بن عباد خمسمائة دينار يتجهز بها ليتوجه إليه .

ويرحب المعتمد بالشعراء ويرسل إلى الأديب أبى الحسن الحصرى القيروانى صاحب القصيدة الشهيرة :

يا ليل الصب متى غده .

والتى بها إيقاع ولحن موسيقى ، وكانت مدار تنافس بين الشعراء وأوجدت لوناً من الأدب الشعرى فى فن المعارضات .

وشغل بمعارضتها شعراء كل عصر حتى شوقى فاستوحاها فى :

مضناك جفاه مرقده .

لقد غص مجلس المعتمد بالشعراء .

بل كان المعتمد نفسه شاعراً بل كانت جواريه شواعر .

والأندلس نفسه قطعة من الشعر الذى أصبغت عليه يد الطبيعة جمالا ، ومما ترويه كتب الأدب والتاريخ مما يدل على اتجاه المعتمد الفنان والحاكم المرهف أن ذوقه الشاعرى جعله يختار زوجة له من أجل شطرة شعر .

وجارية المعتمد بن عباد المشهورة « بالرميكية » عند ما ركب ابن عباد النهر ذات يوم ومعه وزيره الشاعر « ابن عمار » وقد زردت الريح صفحة النهر فقال المعتمد لابن عمار أجز .

صنع الريح من الماء زرد .

فأطال ابن عمار فى إجهاد الفكرة ولم تسعفه القريحة ، فقالت امرأة من الغاسلات على الفور :

أى درع لقتال لو جمد .

فتعجب المعتمد من حسن ما أتت به من النظم وما عجز عنه الشاعر ابن عمار ، ونظر إليها فإذا هى جميلة كما هى فصيحة البيان . فسألها : أذات بعل أنت ؟

قالت : لا . فتزوجها وكانت أماً لأولاده الرشيد والراضى والمأمون والمؤتمن .

والمعتمد من يوم نشأته الأولى كان يقرب الشعراء ولا يخلو مجلسه من أديب وفنان حتى قبل توليته الملك فى « إشبيلية » .

فعندما كان عاملا لأبيه فى « شلب » وحاكماً على إيم الجوف البرتغالى ، كان صديقه الملازم له شاعراً ذا أثر فى دولة الشعر « أبوبكر بن عمار » .

وعند ما جلس على عرش « إشبيلية » كان الشعراء يفدون إليه ويلقون لديه المراح الخصيب والليالى الموسيقية .

ولا عجب أن يتجاوب مع الشعراء . ألم يعجب بجارية كانت تجيز له شطر بيت من الشعر وكانت الجارية — التى أشرنا إليها — على ضفة النهر من مقربة من « فحص الفضة » .

والمعتمد شاعر قد يجعل من الخيال حقيقة ومن الأمانى صوراً ملموسة وقد جعل أيضاً بتصرفه الحقيقة والواقع أيضاً خيالا وحلماً . فهذه الجارية الحالمة — كانت ذات مرة — تتمنى لو عجنت برجليها الطين . فنثر لها الشاعر الحاكم الكافور والعنبر والمسك على الحصى وصنع من هذه المواد الغالية العطرة طيناً .

ولقد وجد الشاعر ابن حمديس لدى المعتمد مجالس الأنس وسهرات الشعراء . وتذوق المعتمد شعر ابن حمديس وتفهم ذوقه المرهف وحاسيته الفياضة .

فيمكث الشاعر الصقلى عند بلاط المعتمد زهاء ستة أعوام ، ولكن الشاعر المعتمد توالت عليه أعاصير الأحداث وهزت عرشه زلازل الأيام .

وتوالت الأيام ودارت دواليبها عند ما ثقلت وطأة ألفونس السادس. نجد المعتمد يوجه وجهته صوب بلاد المغرب ويستنجد بيوسف بن تاشفين وخاض معه معركة « الزلاقة » وكان فيها حاملا إكليل الانتصار (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) ولكن أعاصير

السياسة أو دوافع الطموح جعلت « يوسف بن تاشفين » يتألب على المعتمد وينقلب عليه وينقض عهوده ومواثيقه معه .

وانهزم المعتمد فى هذه الجولة .

ودارت الأيام وتوالت الأحداث ونفى المعتمد إلى « أغمات » عند سفح جبال الأطلس وغدا الأمير الحاكم مشرداً تائهاً مقيداً فى الأغلال .

وصحبه الشاعر عبد الجبار بن حمديس .

وكلاهما غدا يصور ألمه وفرقة وطنه ، هذا ابن حمديس يصور صقلية وسرقوسة ؛ وهذا يصور « إشبيلية » وليالى الأندلس .

مأساة دامية . . . كلاهما يندب حظه العاثر ويشكو أفاعيل القدر وجبروته .

وقد وافى الأجل المعتمد وهو فى دار حقيرة اتخذها من طين وسعف نخيل فى ظلال الأحزان ورقرقات الدموع وظلال الذكريات .

وكان نفى المعتمد وأسره فى عام ٤٨٤ هـ .

وفى هذا العام كان النورمان قد تمكنوا من السيطرة على أنحاء صقلية ، فهى صدمة مزدوجة تعترى نفس الشاعر الملهم عبد الجبار بن حمديس .

ولقد ذهبت دولة ملوك الطوائف وتقوض عرش المعتمد ابن عباد وما بقى فى سيل الزمن إلا قصة مؤلمة ومأساة عميقة . .

أو ما بقي إلا أدب وشعر يصور فترة من فترات القلاقل فى عصر الأندلس قبل غروب شمسه وانحسار أمجاده .

وليست هذه المأساة الأخيرة التى تهتز لها نفس ابن حمديس الذى شاهد غزو الروم لصقلية ، بل إن مسرح حياته شاهد ألواناً من المآسى والهزات التى ترتبط بالوضع السياسى والاجتماعى فى بلاد الأندلس وأفريقية .

ثم هزات تتصل بحياة أسرته وحياته الخاصة فقد شاءت الأقدار أن تغرق المركب الذى هرب عليها من صفاقس إلى الأندلس ، وغرقت جاريته التى كان يحبها وصاغ فيها ألواناً من الشعر .

وكان يجد فيها شيئاً من السلوى وأنواعاً من الإلهام والوحى الشعرى .

ولقد ظل الشاعر ابن حمديس وفيا لصاحبه المعتمد فى منفاه وأسره وصاغ فيه ألواناً من الشعر العاطفى الذى يصور مأساة الأمير المنفى . فعندما سيق أسيراً إلى « أغمات » قال ابن حمديس :

أباد حياتى الموت إن كنت ساليا
وأنت مقيم فى قيودك عانيا
تعريت من قلبى الذى كان ضاحكاً
فما ألبس الأجفان إلا بواكيا
وما فرحى يوم المسرة طائعاً ولا حزنى يوم المساءة عاصيا

وهل أنا إلا سائل عنك سامع أحاديث تبكى بالنجيع المعاليا

* * *

ومن صور ابن حمديس لصاحبه المعتمد وتصوير ذكريات لياليه :

أمر بأبواب القصور وأغتدى لمن بان عنها فى الضمير مناجيا
وأنشد لاما كنت فيهن منشدا إلا حىّ بالدّو الرسوم الحواليا
وأدعو بنيها سيداً بعد سيد ومن بعدهم أضحت رماماً بواليا
مضيت حمياً كالغمامة أقشعت
وقد ألبست وشى الربيع المغانيا
سأدمى جفونى بالسهاد غفية إذا وقفت عنك الدموع الجواربا
وأمنع نفسى من حياة هنيئة لأنك حى تستحق المراثيا

* * *

وكانت هناك مراسلات شعرية بين ابن حمديس والمعتمد وهو فى أسره ومنفاه .

كتب المعتمد إلى الشاعر ابن حمديس قصيدة مطلعها :

غريب بأرض المغربين أسير سيبكى عليه منبر وسرير

فأجابه عبد الجبار بن حمديس بقصيدة منها :

لئن كنت مقصوراً بدار عمرتها فقد يقصر الضرغام وهو هصور
أعز الأسارى أن يقال : محمد غريب بأرض المغربين أسير

* * *

وذات مرة ذهب ابن حمديس لزيارة المعتمد بمنفاه فى

« أغمات » فصرفه عن لقياه بعض الخدم وزعم له أنه لا يوجد في ذلك الوقت ، وأثر هذا في نفسه .

وعند ما علم المعتمد بمجيء الشاعر وكيفية صده ورده تألم لهذا وعنف خادمه وكتب يعتذر إلى صاحبه الشاعر قائلا :

حجبت فلا والله ما ذاك من أمري
فاصغ فدتك النفس سمعاً إلى عذري

فلا صار إخلال المكارم لي هوى
ولا دار أخجال لمثلك في صدري

عدمت من الخدام كل مهذب أسير إليه بالخفيض من الأمر
ولم يبق إلا كل أدكن ألكن فلا آذن في الأذن يبرأ من عسر
حمار إذا يمشي ونسر محلق إذا طار بعداً للحمار وللنسر
وليس بمحتاج أتانا حمارهم ولا نسرهم مما يحن إلى وكر
ولو كنت ممن يشرب الخمر كنتها إذا نزعت نفسي إلى لذة الخمر

وأنت ابن حمديس الذي كنت مهديا
لنا السحر إذ لم يأت في زمن السحر

* * *

وقد كان لاعتذار المعتمد الأسير أثر في نفس الشاعر ابن حمديس وتقبل عذره بقبول حسن ورد عليه ابن حمديس قائلا :

أمثلك مولّى يبسطُ العبدَ بالعذر
بغير انقباض منك يجرى إلى وكر
لهدّ قريض الفضل ما هدّ من قوى
وحلّ به ما حلّ من عقدة الصبر
وإنى امرؤ فى خجلة مستمرة يذوب لها فى الماء جامدة الصبر
أتتنى قوافيك التى جلّ قدرها بها نقطة منهن مغرقة بحرى
لعلك إذ أغشيتنى منك بالندى
أردت الغنى لى من مديحك بالفخر
يخفّ على خدّام ملكك جانبى
كما خف هدب فى العيون على شفر
إذا طار منهم بالوصية سوزمُدُ فذلك فى إفصاح منطقه القمرى
تحدثُ عينى عينه بالذى يرى
بوجهك لى من حسن مائية الشر
ليالىّ لا أشدوك إلا مطوقاً بنعماك فى أفنان روضاتك الخضر
ولا زال من نداك يبلنى ويثقلنى حتى عجزت عن الوكر
بكيت زماناً كان لى بك ضاحكاً
وكسر جناحى كان عندك ذا جبر
وأطرقت لما حالت الحال حيّرة
تحير منى عالم النفس فى صدرى
فخذها كما أدرى وإن كلّ خاطرى
وإن لم يكن منها البديع الذى تدرى

ويلاحظ أن المعتمد بن عباد أرسل القصيدة التى يتعذر بها فى سرعة ، كما أرسل ابن حمديس الجواب على الفور .

وكانت مناسبة أفاضت فيها أحاسيسه نحو صديقه الشاعر .

لقد كثر الشعراء وحفلت المجالس الخاصة والعامة بألوان من الفن الشعرى ، وهل كان انهيار الأندلس بسبب تفشى الروح الشاعرية بين أهل الأندلس ؟ !

وهل الأدب والفن كان من عوامل تقويض هذه الدولة ؟ !

إن من الجناية على روح الفكر بل من التجنى على الحقيقة أن يزعم بعض من الناس أن أسواق الأدب وأسمار الشعراء قد ضيعت أمجاد هذه الدولة !

وأى منطق هذا . . !

والشعر كان وليد حضارة ونتاج ازدهار .

إن زوال ملوك الطوائف . بقى بعده رواج للأدب والشعر . وتماسكت بعد انهيار بنى عباد الأندلس وتملك الأمر قائد طموح « يوسف بن تاشفين » وبعد يوسف بن تاشفين ظلت دولة الموحدين بالأندلس .

والذى نريد أن نشير إليه هنا دفع فرية هى أن الشعر ضيع الأندلس . . إن الأندلس بعد عصر المعتمد وشعرائه ظلت فى أيدى العرب زهاء ثلاثمائة عام ونيف .

وفى هذه الحقب والأعصر مدت المكتبة الإسلامية بنتاج وافر من القرائح ، وأمدت الأندلس بذخائر الفكر وأسهمت

فى تغذية العقول وإنعاش الحضارة .

لم تكن أسواق الشعراء ومجالس الفن والأدب هى المعاول التى هدت الأندلس لم يكن عصر المعتمد هو الذى قوّض الأندلس .

فقد أنتجت الأندلس بعد هذه الحقبة أدمغة من أهل الفلسفة والطب والعلم والاختراع والاكتشاف .

وناهيك بأسماء لامعة فى سماء الإنتاج الفكرى : — ابن رشد — وابن الطفيل — وابن زهر — وأبى بكر — وأبى القاسم الرازى .

وهل سمعت بمحاولة الطيران الأولى على يد شهيد التجربة الأولى « عباس بن فرناس » .

وهل سمعت بقصة المغامرة الجريئة من الأخوة الذين ركبوا بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) كى يكتشفوا أرضاً وراءه ؟ ! . . .

وكانت البحرية مزدهرة ومؤلفات العلماء فى الطب والجراحة تشهد بنبوغ الفكر الأندلسى ، كل هذا يقدمه أهل الفكر فى هذه الحقب ، فهل يصح أن يزعم أن الأدب والشعر فى مجالس المعتمد عملت على زعزعة المجد السياسى والقضاء على النتاج العلمى !

صقلية فى عصر ابن حمديس

جاء فى « الكامل » لابن الأثير :

« كان الأمير على صقلية سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة — ٣٨٨ هـ . — أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد الحسين ، ولاه العزيز العلوى صاحب مصر وأفريقية فأصابه فى هذه السنة فالج فتعطل جانبه الأيسر وضعف الجانب الأيمن ، فاستناب ابنه صغيراً فبقى كذلك ضابطاً للبلاد حسن السيرة فى أهلها إلى سنة خمس وأربعمائة — ٤٠٥ هـ .

فخالف عليه أخوه علياً وأعانه جمع من البربر والعبيد .

فأخرج عليه أخوه جعفراً جنداً من المدينة « بلرم » فاقتتلوا سابع شعبان وقتل من البربر والعبيد خلق كبير .

وهرب من بقى منهم وأخذ « على » أسيراً فقتله أخوه جعفر وعظم قتله على أبيه — فكان بين خروجه وقتله ثمانية أيام .

وأمر جعفر حينئذ أن ينفى كل بربرى بالجزيرة فنفوا إلى أفريقية ، وأمر بقتل العبيد فقتلوا عن آخرهم .

وجعل جنده كلهم من أهل صقلية ، فقتل العسكر بالجزيرة ، وطمع أهل الجزيرة فى الأمراء فلم يمض إلا يسير حتى ثار بهم أهل صقلية وأخرجوه وخلعوه وأرادوا قتله .

وذلك لما ولى عليهم إنساناً صادرهم وأخذ الأعشار من غلاتهم واستخف بقوادهم وشيوخهم فى البلد .

وقهر جعفر واستطال عليهم فلم يشعر إلا وقد زحف إليه أهل البلد كبيرهم وصغيرهم فحصروه فى قصره ، فى المحرم سنة عشر وأربعمائة — ٤١٠ هـ . — وأشرفوا على أخذه فخرج إليهم أبوه يوسف فى محفة وكانوا له محبين فلطف بهم ورفق فبكوا رحمة له من مرضه وذكروا له ما أحدث ابنه عليهم وطلبوا أن يستعمل ابنه أحمد المعروف بالأكحل ففعل ذلك .

وخاف يوسف على ابنه جعفر منهم فسيروه إلى مركب إلى مصر .

وسار أبوه يوسف بعده ومعهما من الأموال ستمائة ألف درهم وسبعون ألفاً ، وكان ليوسف من الدواب ثلاثة آلاف حمر سوى البغال وغيرها ، ومات بمصر وليس له إلا دابة واحدة.

ولما ولى الأكحل أخذ الأمر بالحزم والاجتهاد وجمع المقاتلة وبث سراياه فى بلاد الكفرة وجنوب إيطاليا . وأطاعته جميع قلاع صقلية التى للمسلمين .

وكان للأكحل ابن اسمه جعفر كان ينيبه إذا سافر فخالف سيرة أبيه .

ثم إن الأكحل جمع أهل صقلية وقال أحب أن أشيلكم على الإفريقيين وأهجم بكم عليهم لطردهم فقد شاركوكم فى

بلادكم . والرأى إخراجهم . فقال لهم مثل ذلك فأجابوه إلى ما أراد ، فجمع حملة فكان يحمى أملاكهم ويأخذ الخراج من أملاك أهل صقلية ، فسار من أهل صقلية جماعة إلى المعز بن باديس وشكوا إليه ما حل بهم .

وقالوا نحب أن نكون فى طاعتك وإلا سلمنا البلاد للروم . وذلك سنة سبع وعشرين وأربعمائة ٤٢٧ هـ ، فسير معهم ولده عبد الله فى عسكر فدخل — بلرم — وحصر الأكحل وخلعه ثم اختلف أهل صقلية وأراد بعضهم نصرة الأكحل فقتله الذين أحضروا عبد الله بن المعز .

ثم إن الصقليين رجع بعضهم إلى بعض فقالوا : أدخلتم غيركم عليكم والله لا كانت عاقبة أمركم إلى خير . فعزموا على حرب عسكر المعز .

فاجتمعوا وزحفوا إليه فاقتتلوا فانهزم عسكر المعز .

وقتل منهم ثمانى مائة رجل ، ورجعوا فى المراكب إلى إفريقية وولى عليهم أهل الجزيرة الصمصام أخا الأكحل .

فاضطربت أحوالهم ، واستولى الأراذل . وانفرد كل إنسان ببلد وأخرجوا « الصمصام » فاستولى عبد الله بن منكوت بمازر وطرافش وغيرها وانفرد القائد على بن نعمة المعروف بابن الحواس بقصريانة وجرجنت وغيرها .

وانفرد ابن الثمنة بمدينة سرقوسة وقطانية وتزوج بأخت ابن الحواس .

ثم إنه جرى بينها وبين زوجها كلام أغلظ كل منهما لصاحبه وهو سكران ، فأمر ابن الثمنة بفصدها فى عضديها وتركها لتموت وسمع ولده إبراهيم فحضر وأحضر الأطباء وعالجها إلى أن عادت لقوتها . ولما أصبح أبوه ندم واعتذر إليها بالسكر فأظهرت قبول عذره ثم إنها لما طلبت منه بعد مدة أن تزور أخاها أذن لها وسيّر معها التحف والهدايا فلما وصلت ذكرت لأخيها ما فعل بها فحلف ألا يعيدها إليه .

فأرسل « ابن الثمنة » يطلبها فلم يردها إليه . فجمع « ابن الثمنة » عسكره وكان قد استولى على أكثر الجزيرة . وخطب له فى مدينة « بلرم » قصبة صقلية .

وسار وحاصر « ابن الحواس » بقصريانة . . فخرج إليه فقاتله وانهزم « ابن الثمنة » وتبعه إلى قرب مدينة « قطانية » وعاد بعد أن قتل من أصحابه فأكثر القتلى. فلما رأى « ابن الثمنة » أن عساكره قد تمزقت فسولت له نفسه الانتصار بالإفرنج .

فسار إلى مدينة « مالطة » وهى بيد الإفرنج . فلما خرج بردويل الفرنجى « بنعاوين الرابع » ملك فلاندر سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة ٣٧٢ هـ .

واستوطنها الإفرنج إلى الآن .

وكان ملكها حينئذ — روجار النورمندى .

فوصل إليهم « ابن الثمنة » وقال : « أنا أملككم الجزيرة . فقالوا له إن فيها أجناداً كثيرة ولا طاقة لنا بهم . فقال إنهم مختلفون وأكثرهم يسمع قولى ولا يخالفون أمرى .

فساروا معه فى رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة ٤٤٤ هـ فلم يلقوا من يدافعهم فاستولوا على ما مروا به فى طريقهم وقصد بهم إلى « قصريانة » فحصروها فخرج إليهم « ابن الحواس » فقاتلهم فهزمه الفرنج . فرجع إلى الحصن فرحلوا عنه .

وساروا إلى الجزيرة واستولوا على صوامع كثيرة وفارقها كثير من العلماء والصالحين . وسار جماعة من أهل صقلية إلى « المعز بن باديس » وذكروا له ما الناس فيه بالجزيرة من الخلف وغلبة الفرنج على كثير منها .

فعمر أسطولا كبيراً وشحنه بالرجال والعدد . وكان الزمان شتاء وصاروا إلى « قوصرة » جزيرة صغيرة بالبحر الأبيض المتوسط من أجزاء إيطاليا وتبعد عن إفريقية بحوالى ستين كيلو .

وكان ذهاب هذا الأسطول مما أضعف المعز . وقوى عليه حتى أخذوا البلاد منه . فملك حينئذ الفرنج أكثر البلاد على مهل وتؤدة ، ولا يمنعهم أحد . واشتغل صاحب أفريقية

مما دهمه من العرب ، ومات المعز بن باديس سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ٤٥٣ هـ . وولى ابنه تميماً فبعث أسطولا وعسكراً إلى الجزيرة وقدم عليه ولديه أيوب وعلياً .

ووصلوا إلى صقلية فنزل أيوب والعسكر إلى المدينة ونزل أيوب على « جرجنت » ثم انتقل أيوب إلى « جرجنت » وأقام فيها فأحبه أهلها فحسده « ابن الحواس » فكتب إليهم ليخرجوه فلم يفعلوا فسار إليه فى عسكره وقاتله فشد أهل « جرجنت » من أزر أيوب وقاتلوا معه .

فبينما « ابن الحواس » يقاتل تاه سهم غرب فقتله ، فملك العسكر عليهم أيوب ثم بعد ذلك وقع بين أهل المدينة وبين عبيد تميم فتنة أدت إلى القتال ثم زاد الشر بينهم فاجتمع أيوب وعلى أخوه ومعهم جماعة من أهل صقلية والأسطولية ، ولم يبق للإفرنج ممانع ، فاستولوا على الجزيرة ولم يثبت بين أيديهم غير « قصريانة » بعد ثلاث سنوات .

فلما اشتد الأمر عليهم أذعنوا إلى التسليم فتسلمها الإفرنج سنة أربع وثمانين وأربعمائة ٤٨٤ هـ .

وتملك « روجار » جميع الجزيرة وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين ولم يترك لأحد من أهلها حماماً ولا دكاناً ولا طاحوناً ومات « روجار » ذلك قبل التسعين والأربعمائة . وملك بعده ولده — رجار — طريق ملوك المسلمين ، من الجنائب والحجاب والسلاحية والجاندارية وغير ذلك وخالف الإفرنج فإنهم لا يعرفون

شيئاً منه ، وجعل له ديوان المظالم ترفع إليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده ، وأكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الإفرنج فاحبوه » . اهـ

ويلاحظ أن « رجار » هذا هو الذى ألف له « الشريف الإدريسى » كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (هذا كلام المؤرخ « ابن الأثير ») . أثبتناه هنا لنعطى صورة عن الحالة فى صقلية فى عصر الشاعر ابن حمديس وما قبله وما بعده بقليل .

الفهرس

	الصفحة
حياة عبد الجبار بن حمديس	٥
نفسية ابن حمديس	١٩
أسلوب ومنهج ابن حمديس	٢٣
وطنية وعروبة الشاعر المغترب	٧١
من طرائف الوصف	٨٦
سرقوسة بلدة الشاعر	٨٨
ملوك الطوائف — بنو عباد — المعتمد . . .	٩١
صقلية فى عصر ابن حمديس . . .	١٠٥

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة

على مطابع دار المعارف

سنة ١٩٦٣

دار المعارف

تقدم إلى قراء العربية هذه المجموعة المختارة من الكتب العربية :

		قرشاً
أثر العرب فى الحضارة الأوربية	للأستاذ عباس محمود العقاد	٢٠
أمتنا العربية	للأستاذ محمد فريد أبي حديد	٤٠
الدولة العربية الكبرى	للأستاذ محمود كامل	١٢٠
الأقصوصة فى الأدب العربى الحديث	للدكتور عبد العزيز عبد المجيد	٨٠
تاريخ الطباعة فى الشرق العربى	للدكتور خليل صابات	٦٠
الهيلينية فى مصر من الإسكندر إلى الفتح العربى	للأستاذ زكى على	٦٠
الكيمياء عند العرب	للأستاذ روحى الخالدى	١٠
العرب فى صقلية	للأستاذ إحسان عباس	٥٠
العرب لا كرستوف كولومبس	للأستاذ محمد سعيد العريان	٢٥

أكتوبر ١٩٦٣

الثمن ٣٠ مليماً

783
9
1mi